الشرياصي

صلوات على الشاطىء

916.21:Sh55sA

الشرباصي، احمد.

صلوات على الشاطئ.

916.21
Sh53sA

MY 24

916.21
Sh53sA
C.1

أحمد الشرباصي

صلوات على الشاطئ

"الى رأس البر..."

القاهرة
مطبعة دار الكتاب العربي
١٩٥١

الطبعة الثانية
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
١٣٧٠هـ — ١٩٥١م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم
المرسلين ، وعلى آله وصحبه وأتباعه أجمعين .

المؤلف

دعاء . . .

اللهم افتح بصرى على مشاهد جمالك فى كونك ، وآيات جلالك فى خلقك ، ومظاهر كمالك على صنعتك . . .

اللهم املأ بصيرتى بنور التفكر فى ملكوتك ، واغمر روحى بفيض التدبر فى آلائك ، واعمر عقلى بسنا الاهتداء إليك . . .

اللهم وامنح المحروم من التمتع بطيباتك سبيلا إليها ، ليصح ويقوى ، ويعطى ويأخذ ، ويرتفع بمحياه ودنياه . . . إنك أنت السميع المجيب .

صلوات على الشاطىء

تمهيد

أدب الطبيعة فى اللغة العربية قليل محدود ، لا نجد من آثاره إلا الشواهد المنثورة ، أو القطع المطمورة ، التى قد نلقاها ، أو نعثر عليها ، بعد طول بحث وتنقيب ، فإذا ماظفرنا بشىء من هذا فى قديم أو حديث هللنا وكبرنا ، كأننا قد كشفنا كنزاً ، أو عرفنا سراً محجباً من أسرار الكون ، مع أن الواجب هو أن تشغلنا الطبيعة بنفسها ومظاهرها حتى تستحوذ على قلوبنا وأقلامنا ، لأنها أم الأديب العظمى وملهمته الأولى .

وأدب الشواطئ فى لغتنا أقل وأندر ، مع أن الطبيعة الجواد قد منحتنا من نعم هذه الشواطئ ما كان جديراً بأن يهز منا المشاعر ، ويحرك الأوتار ، وينطق الألسنة ، ويجرى الأقلام .

وهذه فصول وصور أدرت فيها الحديث عن أحد شواطئنا ، وهو شاطئ رأس البر . ولست أذهب مع الوهم فأدعى أنها جديدة أو وحيدة ولكنى أقول فى استحياء : إنها لبنة متواضعة فى هيكل أدب نرجو أن يزدهر وينمو ، وأن يكون عماده الالتفات إلى هذه الطبيعة لدراستها وتصويرها شعراً ونثراً بصورة واسعة شاملة .

إنه جهد مقل ، وجهد المقل فى الميدان البكر مقبول إن لم يكن مشكوراً ، فحسبى من هذه الفصول أن تثير فى قارئها فكرة الالتفات إلى ما فى هذه الشواطئ من آيات تستحق التسجيل ...

وليس يعنينى كثيراً بعد هذا : أتنال إعجاب القارئ ورضاه ، فيصفق لها ويهتف ، أم تثير حفيظته ونقده ، فتدعوه إلى الإتيان بما هو أجود منها وأجمل ! ! .

أحمد الشرباصى

إلى رأس البر

سبتمبر سنة ١٩٤٦ م

(١)

بين الأمس واليوم

منذ عشر سنوات ، وفى أواخر أغسطس سنة ١٩٣٦ م على وجه التحديد ، قصدت إلى مصيف رأس البرّ الجميل الهادئ مستطبًا ومستجماً وأثرت فى نفسى هذه الرحلة يومئذ على الرغم من قصرها تأثيراً بليغاً ، وأجرت قلمى بفصل أدبى طويل قيَّدْتُ فيه خواطرى ، وصَوَّرْت أحاسيسى ومشاعرى ، وعرضت ما دار بخلدى وما اختلج بفؤادى حينئذ . وقد نشرت هذا الفصل عقيب الرحلة فى مجلة « السياسة الأسبوعية » تباعاً ، ثم ضمنته أحد كتبى التى أصدرتها فى أول عهدى بالأدب[١] .

وقد قوبل هذا الفصل الأدبى من بين فصول الكتاب المختلفة بالحمد والثناء ، والرضا والقبول من كثير من النقاد والأدباء ، حتى قال فيه أحد الأصدقاء : « إنه أجمل ما فى الكتاب ! » . ولم يكن ذلك فيما أعتقد أنا لقوة الفصل وجِدَّته ، أو لعبارته و بلاغته ، بل لأننى تركت فيه نفسى على سجيتها وطبيعتها ، ترى فتَخْبُر ، وتُحس فتصور ، وتشاهد

---

(١) كتاب « محاولة » . وقد ظهر سنة ١٩٣٧ م . وقد نفدت نسخه .

فترسُم ، وتبصر فتصف ، وتفرح فتسكب فرحها فى عباراتها ، وتألم فتوقد ألفاظها بنار أحزانها ! . . .

والواقع أنه لن يخلد لأديب أو لِمفَنٍّ أثر من الآثار ، أو عمل من الأعمال ، إلا إذا كان قطعة من قلبه وروحه ، وجزءاً من نفسه وحسه . ولقد قيل لبعض العرب : متى يكون الفتى بليغاً ؟ فقال : إذا وصف هوى حياً ! .

وهأنذا بعد عشر سنوات طويلات ، حافلات بمختلف الحوادث الصغار والجسام ، مثقلات بالعجائب والغرائب ، مضنيات لأهليها بإصباحها وإمسائها ، مدنيات لأحيائها من مصائرهم وحفائرهم ، وإن حسبوها امتداداً لأعمارهم ، أو سعة فى تاريخهم وأخبارهم ... هأنذا بعد ذلك الزمن الطويل عند التدبر والتفكر ، والاجترار والاعتبار ، القصير فى حساب الدنيا ودورة الفلك وركب الحياة ... هأنذا بعد عشر سنوات كاملات أعود إلى مصيف رأس البر الحبيب ! ! .

ما أسرع الأيام فى مرورها ، وما أعجل الليالى فى تكرارها ، وما أغفل بنى الإنسان عن سير الزمان ! .

هذه الأعوام العشرة ما أطولها وما أجلها . . . ليت شعرى ، هل يستطاع السبيل إلى إحصاء كل ما كان فيها من خير وشر ، وقول وعمل ، ونوم ويقظة ، وإقدام وإحجام ، وعبادة وإفساد ؟ .

إنها لتتكون من عشرة أعوام ، وكل عام عند الله كطرفة عين أو أقل ، ولكنه فى قائمة حسابنا طويل عظيم . . . عام فيه اثنان وخمسون أسبوعا أو يزيد ، وفيه ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً ، وفيه ثمانية آلاف وسبعمائة وستون ساعة ، وفيه أضعاف أضعاف هذه الآلاف من الدقائق ، وأضعاف أضعاف دقائقه من الثوانى ؛ فكم رَوْحة للإنسان فيه وكم غدوة ؟ وكم ثوب لبسه أو نزعه ؟ وكم من يقين أدركه أو شك وسوست به نفسه ؟ وكم من نومة نامها ، وجلسة جلسها ، ومشية مشاها ؟ وكم من أكلة أكلها ، وشربة شربها ؟ وكم ضحكة أرسلها ، وسخرية أتاها ؟ وكم دمعة ذرفها ، أو زفرة رددها ؟ وكم كلمة قالها ، أو فكرة رآها ، أو عزم أقدم عليه ؟ وكم موعد أخلفه ، وصديق غدر به ؟ وكم موبقة اقترفها ، أو حسنة أتاها ؟.. وكم علم تعلمته ، وهدى اهتديت به ، وأستاذ تتلمذت له وهرعت إليه ، ورفيق سعدت معه ، وصديق شقيت به ، ومشهد مررت عليه ؟... بل كم مرَّ بالعالم من أمور وحوادث !.. كم دولة قامت ، ودولة بادت ؟ وكم أُسَر فنيت ، وأخرى عُمِّرَت ؟ وكم من حُرٍّ أصبح ذليلاً ، وكم من ذليل أصبح سيداً ؟.... وكم وكم وكم ؟!.

يالله ! ! . . إن الإنسان هنا ليشفق على نفسه ، ويمسك رأسه بيديه خوفاً من الدوار والصداع ، حينما يستعرض أجزاء هذا العام الواحد المتتابعة ، ويتذكر مافعله خلال أيامه جزءاً جزءاً وشيئاً شيئا ، وخطوة

خطوة ومرحلة مرحلة . ويخيل إليه حين يشط به التذكر والاجترار أنه يهوى من شاهق مرتفع إلى مهوى عميق ، يصادفه فى سقوطه وهَوِيِّه وانحفاضه أشباح وتهاويل ، وألوان وأشكال ، وصور مختلفة ، ومناظر متباينة ، تصدمه من يمينه وشماله ، وأمامه وخلفه ، وتحته وأعلاه ، وهو مبهور الأنفاس ، مرتجف الفؤاد ، مرتعش الأعضاء ، مأخوذ اللب ، لايتبين مكانه ولا نفسه ، ولا يستطيع التشبث بشىء حوله ، أو التثبت من حقيقة أمر يلقاه ؛ فكيف له إذن باستعراض عشرة أعوام طوال عراض ثقال كبار ؟ ، وكيف له — لوأراد — باستعراض عمره الطويل الذى يتكون من عشرات الأعوام لامن عشرة واحدة فحسب ، والذى ملأه بالسيئات والرذائل ، والمنكرات والمآثم ، وقدشُغل بيومه ، ونسى أمسه ، وغفل عن غده ، وأفرط فى شهواته ، وفرط فى قُرباته ، ولم يفكر يوماً فى حساب نفسه ، ولم يخش حيناً عقاب ربه ، فلم يكن له رادع فى مثل ما حكاه مالك بن دينار ، قال : سمعت الحجاج يخطب وهو يقول :

« رَحِمَ الله امرأً حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره . رَحِمَ اللهُ امرءا أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به . رَحِمَ اللهُ امْرَءا نظر فى مكياله . رَحِمَ الله امرءا نظر فى ميزانه !. . » فما زال يقول حتى أبكانى !.

ولم يكن له وازع أو واعظ من قول الحسن : « أدركت أقواماً ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبَل ، ولا يتأسَّفون على شيء منها أدْبَر ؛ ولهى كانت أهون فى أعينهم من هـذا التراب الذى تطأونه بأرجلكم . إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوى له ثوباً ، ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ، ولا جعل بينه و بين الأرض شيئا قط ؛ وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسُنة نبيهم . إذا جَنَّهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفترشون وجوههم (يعنى السجود) ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون ربهم فى فـكاك رقابهم . إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا فى شكرها ، وسألوا الله أن يتقبلها . و إذا عملوا السيئة أجزتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم . والله مازالوا كذلك وعلى ذلك ، ووالله ما سلموا من الذنوب ، ولا نجوا إلا بالمغفرة » ! .

رحماك اللهم رحماك ! جهلنا قدرك ، ونسينا أمرك ، وألهتنا أعراض ووقذتنا أمراض ، للجسد منها نصيب وللنفس منها أنصبة ، ومرت بنا الحوادث والأحداث ، يقودها ركب الحياة ونحن عنه غافلون ، كأننا ننام فى كن مكنون ، لا توقظنا الأيام ولا تقرعنا السنون ! .

وى ياهذا ؟ ! و ياعجباً لك كل العجب !... أحسبتها خشبة منبر أو حلقة إرشـاد ، فوقفت خطيباً واعظا ، تذكر بالأيام والمثلات ، وتزجر بالعبر وتَردع بالآيات ، وتلبس للناس ثوب النصيحة فى كل مكان ، حتى فى موطن النزهة والاستجمام ؟! .

لا لا ، لست هنا حيث وقفاتك وشطحاتك ، وعبرك وعظاتك ، وخطبك ومقالاتك ، وإنما أنت هنا فى الطريق إلى رأس البر ! !

إلى رأس البر أيها الرجل ، فالصحب يستعجلونك ، والوقت يخونك ، والركب على أهبة المسير ، وأنت غاد على موسم من مواسم الطبيعة ، يفلح فيه الشعر والخيال ، ولا تفلح فيه الفلسفة وتعقيد الأفكار ! . فدع عنك ما أنت فيه ، ولا تثقل على نفسك وغيرك بما تبديه ، وأبقِ على آرائك وأهوائك ، وخذ نصيبك من اللذة والمتعة مع خلانك وأصدقائك ، ولا تضيع فى الأوهام عمرك ، ولا تقف على الأشجان أمرك ، ولا تكن كداخل على الندامى ياطم ! ! .

***

وخرجت من قريتى الجميلة « البجلات » التى تقع وسط حقولها الزاهية ومغارسها الباهية ، فكأنها كوكب أرضى منير ، تحيط به هالة من الشجيرات والأزاهير ! . .

خرجت من « البجلات » عروس الدقهلية ، القرية الجميلة الحلوة المنطقة بالأشجار الصغيرة الخضراء .

خرجت من هذا الوطن الحبيب ، مسقط الرأس وملعب الصبا ، ومدرج الأحلام ومستراد الشباب :

بلاد بها نيطت علىَّ تمائمى وأول أرض مس جلدى ترابها !

خرجت من هذا الوطن الذى دلَّ علىَّ فأسرف فى الدلال ،

وحرمنى الكثير ، وإنى به لمستهام وإليه مشوق ، ففيه ذكريات طفولتى ، والصفحات الأولى من حياتى ، وفيه الأهل والآل ، والصحب والخلان ، وأخدان المكتب والمدرسة ، والبيت والشارع ، والحقل والملعب ، وما فيه موضع إلا ولى به صلة من صلات الروح أو البدن ، وما من بقعة فيه إلا ولى فيها ذكريات وتاريخ :

جبلَ التوباد حيَّاك الحيا ... وسقى الله صبانا ورعى
فيك ناغينا الهوى فى مهده ... ورضعناه فكنتَ المرضعا
وحدونا الشمس فى مغربها ... وبكرنا فسبقنا المطلعا
وعلى سفحك عشنا زمنا ... ورعينا غنم الأهل معا
هذه الربوة كانت ملعبا ... لشبابينا ، وكانت مرتعا
كم بنينا من حصاها أربُعاً ... واثنينا فمحونا الأربُعا
وخططنا فى نقا الرمل ؛ فلم ... تحفظ الريح ، ولا الرمل وعى
كلما جئتك راجعت الصبا ... فأبت أيامه أن ترجعا
قد يهون العمر إلا ساعة ... وتهون الأرض إلا موضعا !

* * *

خرجت فى رفقة موافقة مصادقة ، قد تعارفوا فتآلفوا وتقاربوا فتحابوا ، وصار مبدؤهم فى صداقتهم ما رُوى عن الصوفية حين قالوا : إذا قال لك صاحبك : هيَّا ، فقلت له : إلى أين ؟ فلست بصديق ! . .

فهم والله من تدانيهم وتصافيهم، وأخوتهم ووحدتهم ، كالحلقة المفرغة لايدرى أين طرفاها ، ولا يُمايز بين أجزائها ، ولا يُرى فيها فاضل ومفضول ، أو محبوب ومرذول ! .

ولكن الزمان الذى لاترتاح عينه إلى مناظر السعادة ومجالى الهناء ، أبى إلا أن يضم إلى هذا الجمع الكريم الحبيب دخيلا ثقيلا فرض نفسه على الرفقة فرضاً ، فكلفنا من أمرنا شططا ، وحاولنا جاهدين أن نحتمل خطبه ، أو نهون على أنفسنا كربه ، فما استطعنا إلى ذلك سبيلا ! ... ورددنا ما كان يقوله أبو هريرة رضى الله عنه إذا رأى رجلا ثقيلا : اللهم اغفر له ، وأرحنا منه ! . وقولَ الذى قال : إذا كنتَ فى الصلاة ، وكان عن يسارك ثقيل ، فتسليمة عن اليمين تجزئك ! .

وتمكن هذا الفضولى الطارئ الذى لم نعرف له بابا ، ولم نحسب له حسابا ، أن يعكر على الجماعة صفوها ، وأن يخلط نعيمها بأوشاب من السوء وأخلاط من الوحشة ، فكأنه الطبقة الأخيرة فى قول المأمون : « الإخوان ثلاث طبقات : طبقة كالغذاء لايستغنى عنه ، وطبقة كالدواء يُحتاج إليه ، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه » ! .

وهنا تذكرت فاعتبرت ، تذكرت كيف يستطيع الشر القليل أن يفسد جوانب كثيرة من الخير ، وأن يشوه معالم جهات عديدة من الجمال ، وأن يتلف مظاهر كثيرٍ من الحق ؛ ولقد تحتال بجملة أشخاص خيِّرين

طاهرين ، وتقفهم على إصلاح شخص فاسد طالح ، فلا يستطيعون حيلة ولا يبلغون غاية ، ولكن حاول العكس ، وكِلْ إلى شرير واحد مهمة إفساد جماعة أو طائفة ، وانتظر النتيجة فستروعك بعد قليل ! . . ستجده وقد نجح فى مهمته ، وأفلح فى رسالته ، ووصل إلى غايته ، فبذر بذور الفساد فى نفوس أولئك الصالحين حتى فسدت وأنتنت ، وأطلق غربان الضلال فى صدورهم فعششت وباضت وأفرخت . . .

ولهذا كانت دعوات الإصلاح منذ وُجد الإنسان قاسية عنيفة ، لها تكاليفها وتبعاتها ، ولا ينهض بها إلا من أوتى العزم الحديد والصبر الجليد ، والحلم الدائب والإيمان الغالب ، وقد ينجح أحيانا بعد طول الكفاح والنضال ، وقد لاينجح فى أكثر الأحيان مع أنه لم يدخر وسعا فى سبيل الجهاد ! .

ولهذا كانت نزوات الهدم وعوامل التخريب هينة ميسورة ، يأتيها كل لئيم زنيم ، ويصرفها كل صعلوك حقير . وهكذا شاءت إرادة ربك أن يجعل طريق الخير محفوفا بالأشواك مليئا بالعقبات ، وأن يجعل طريق الشر محفوفا بالشهوات مليئا بالأهواء ، وأن يجعل الهداية أمراً صعباً عسيراً ، وأن يجعل الغواية شيئا هينا ميسورا : « إنك لاتهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء » ، « لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم » . وقال الرسول

الكريم عليه الصلاة والتسليم : « حُفَّت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » . ولأمر ما أثر عن الأولين : النعمة تخص والنقمة تعم !... وجلَّ مصرِّف القلوب ومدبر الأمور ، إنه هو العليم الحكيم ! .

فلنحتمل ذلك الضيف الثقيل مكرَهين ، ولنصبر على سفاهته مرغمين ، فما هنالك بد مما ليس منه بد ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، ولعله ابتلاء من الله واختبار ، أو تأديب وتهذيب ، ليبلونا أنشكر أم نكفر ، ونصبر أم نجزع ، وليرينا بجوار ما نحن فيه من نعيم عظيم لوناً من الشر البغيض ، لنقارن بينهما فنعرف مقدار كل منهما ، و بضدها تتميز الأشياء ! . . .

(٢)

فى الطريق

وركبنا عربة يقولون عنها إنها « سريعة » ويسمونها « الديزل » وهى من قطارات السكة الحديدية للوجه البحرى ، ويسمونها « قطارات الدلتا البلجيكية » . . . فأين السرعة المزعومة أيها المخادعون الذين يمتصون دماء الفلاح ، ويسلبونه ماله وجهده ووقته وهدوءه وأعصابه ثم لا يعطونه شيئاً ؟ . . أين السرعة المزعومة أيها السارقون الذين دخلتم مصر غرباء دخلاء ، فقراء أذلاء ، فاستعمرتم واستعبدتم ، وتاجرتم فامتلأتم ، واستحوذتم على المصانع والمتاجر والشركات والهيئات ، ومنابع الثروة ومصادر المال ، واتخذتم مصر الذليلة المسكينة بقرة حلوباً تسقيكم من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، ثم يكون جزاؤها منكم بعد ذلك أن تضربوها الضرب الأليم ، وتسوموها سوء العذاب ؟ ! .

وما هذه القذارة والوساخة والحقارة أيها الجشعون المحتكرون ، أيها الآكلون للسحت الغاصبون للحقوق المضيعون للواجبات ؟ . . .

عربة حقيرة صغيرة ، بالية واهية ، حشروا فيها الراكبين حشراً ،

فاختلط القذر بالنظيف ، والمريض بالصحيح ، والرجل بالمرأة ، والتصقت الصدور بالصدور ، والظهور بالبطون ، والأفواه بالأفواه ، والوقت صيف ، والحر شديد ، والعرق سيال ، والجو صالح لنشاط الجراثيم ، والهواء ملىء بجنود العلل وكتائب الأوبئة ، ورائحة « النفط » المحترق تتصاعد مع الدخان فتقذى العيون وتضايق الأنوف وتخنق الصدور ، وتزيد الأمر سوءاً على سوئه ، وبلاء على بلائه ، والمقاعد ملطخة ببقايا الزيت الأسود ، وأرض العربة ملوثة مملوءة بالقمامات والفضلات والأقذار ، وجدرانها محملة بالتراب والغبار ، وفضاؤها محشود بجيوش البعوض والذباب ، وكأنها (اصطبل) حيوانات أو حظيرة بهائم ، لا مركبة مسافرين من بنى آدم ، وكأنهم لم يدفعوا لأهل القاطرة أجراً جمعوه بعرقهم ودمهم ...

وها هو ذا ماء خزانة العربة يسيل قطراتٍ متتابعة فوق الرءوس والكواهل ، والعربة « السريعة ! » تسير بطيئة رديئة كئيبة ، تتلكأ فى سيرها كأنها تسير إلى حتفها أو قبرها ... وبعد خطوات — ولا تقل مراحل — تقف العربة عن المسير ، وتتبين الأمر فإذا هو عطب فيها احتال له السائق فلم يفك عقدته ولم يُزل علته ، ودُعينا نحن الراكبين إلى أن نساعد بأيدينا ، لندفع العربة إلى الأمام حتى تتحرك محركاتها وتسير ! . . . وهكذا دواليك ! .

والأعجب من هذا كله أن الراكبين راضون بذلك كله ، أو شبه

راضين ، فلا شكوى ولا نجوى ، ولا تألم أو تبرم ، ولا انتقاد أو اعتراض . كأنما قد تعود الشعب فى سنوات الاحتلال الطويلة على الذلة والمهانة ، فليصب عليه أعداؤه أو حاكموه الهوان صبا ، وليذيقوه عذاب السعير ألوانا ، فهو راض صابر ، حامد شاكر ، لايفكر فى ارتفاع أو اجتماع ، ولا يحاول لنفسه ترقية أو تهذيباً ، لطول ما ألقى عليه أعداؤه من الأثقال التى أماتت حسه وأفقدته شعوره ، وجعلته كالحيوان الأعجم ، الذى لا يتألم ولا يتبرم ! . .

وصدق الذى قال : « قُضى على الشرق أن يهبط بعد الارتفاع ، ويذل بعد الامتناع ، ويكونَ هدفاً لسهام المطامع والمطالب ، تعبث به أيدى الأجانب ، من كل جانب ؛ فمنهم من يُغير عليه بحجة الغيرة على الإنسانية ، ومنهم من يتداخل فيه بدعوى إقامة المدنية ؛ ولم تر منهم مَن صدق فى دعواه ، بل كلهم تابَعَ فى ذلك قصده وهواه » ! . .

ماهذا أيها الشعب الذليل المسكين ؟ ماهذا أيتها الأمة الراقدة الراكدة البائدة ؟ ماهذا أيتها الأشتات المبدَّدة ؟ ماهذا أيتها الأغنام السائمة والجموع المستعبَدة ؟ . . أما لهذا الذل من آخر ؟ أما لهذه العبودية من نهاية أو غاية ؟ .

استيقظ أيها الشعب وتنبه لحقوقك وأملاكك ، واسترد ما لك عند غاصبيك ، وإن أبوا عليك ما أعطاه الله لك فشقَّ قلوبَ قاتليك بمحراثك

ومسحاتك ومنجلك ، كما تشق الأرضَ الجامدة فى يسر وسهولة !..
تحركْ أيها الشعب فأنكر هذه المآسى ، واعترض على تلك المساخر ، وانتقد تلك المفاسد ، وطالبْ بما يجب أن يكون لك من حياة كريمة ومنزلة سامية ، وحرية كاملة واستقلال صحيح ، ومعيشة تليق بك كإنسان يحيا فى القرن العشرين : قرن الحقوق الشخصية ، والعزة الفردية والاجتماعية ، قرن النور والمدنية ، قرن الترف والنعيم ! . .

إنك جاهل أيها الشعب ومن حقك أن تتعلم ، فمتى تحقق لنفسك هذه الصفة ، ومتى تطالب بها حاكميك والمشرفين عليك ؟ . وإنك مريض أيها الشعب ومن حقك أن تصح وتقوى ، فمتى ترغم الذين يتولون شئونك على أن يطبوا لك ويعالجوك ؟ . وإنك جائع وفقير أيها الشعب ، بينما يُتخَم غيرك بالطعام ألواناً وأشكالا ، وبينما يسلبك غيرك طعامَك وغذاءك ، فمتى تأخذ منهم هذا الطعام المسلوب رغبة أو رهبة ؟ ! .

وأين رقابة الحكومة الساهرة على هذه الشركات الأجنبية والهيئات الاستغلالية ؟ أين حساب ولاة الأمور الشديد لأولئك الذين يُحسنون الجمع ولا يحسنون القسمة ، وأولئك الذين يحسنون السلب والنهب والابتزاز ، ولا يحسنون المعاملة أو السلوك ؟ . ومتى يتخلص الشعب المحروم المأزوم من هذه الجرائم الفتاكة ، وتلك الديدان الأجنبية ،

وذلك الاحتلال الاقتصادى المريع ؟ .. حسبنا هذا السؤال فما بنا من قدرة على الجواب ، لطف الله بنا عند الحساب ! ! .

إنه وطنى أيها الناس ، إنه وادى النيل الخصيب ، وإنه لأعز علىّ من كل ركن فى الوجود :

وأشهد لا أنساه ماعشت ساعة ... وما انجاب ليل عن نهار يعاقبه
ولا زال هذا القلب مسكنَ لوعة ... بذكراه حتى يترك الماء شاربه !

وما أثور به هذه الثورة ، أو ما أثور عليه هذه الثورة ، إلا لحرصى على خيره ، وحبى لمجده ، وجهادى فى سبيله ؛ وغاية رجائى أن أعيش حتى أراه عزيز الجانب مصون الحرمة ، موفور الكرامة ، منعّما بالحرية والاستقلال ! .

إنه وطنى ، والوطن غال عزيز ، ولقد قال جالينوس : يتروّح العليل بنسيم أرضه ، كما تتروح الأرض الجدبة ببلّ المطر ! . وقال شوقى العبقرى :

إنى أحب — وإن شقيت به — ... وطنى ، وأوثره على الخلد !

وقال ابن الرومى :

ولى وطنٌ آليت ألا أبيعه ... وألا أرى غيرى له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب منعما ... بصحبة قوم أنشأوا فى هنالكا
وحبب أوطان الرجال اليهمُ ... مآربُ قضاها الشباب هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهمُ عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
فقد ألفته النفس حتى كأنه لها جسد إن بان غودر هالكا

إنه وطنى أيها الناس ، والمخلص من يغار على وطنه ، ويبصّره بالطريق ، ويجنبه العثرات . فهل من سامع أو مجيب ؟! .

***

ما هذا أيها الرجل ؟! .

كأنك تأبى إلا أن تفسد على نفسك وعلى غيرك ما أنتم فيه من متعة وفرحة ، فما تتخلص من مشكلة إلا لتتناول مشكلة ، وما تنهنه من غارب فلسفة إلا لتستبد بك فلسفة أخرى ، وما تنتهى من وعظك وإرشادك حتى تقف خطيباً وطنيا وناثراً اجتماعيا ، يحرض على الخيرات ويجاهد المنكرات ! . . . ألا إن لكل مقام مقالا ، فدع عنك الآن وعظك وخطابتك ، وكن مع الصحب فيما هم فيه ، فذلك أجدى عليك مما أنت فيه ، وإلا فما أشقاك بدنياك ! .

ألم تسمع الذى يقول : « لا تتم فائدة الانتقال من بلد إلى بلد ، إلا إذا انتقلت النفس من شعور إلى شعور ، فإذا سافر معك الهم فأنت مقيم لم تبرح .. إذا كنت فى أيام الطبيعة فاجعل فكرك خالياً ، وفرّغه للنبت والشجر ، والحجر والمدر ، والطير والحيوان ، والزهر والعشب ، والماء والسماء ، ونور النهار ، وظلام الليل ، حينئذ يفتح لك العالم بابه ويقول : ادخل ... » ؟! .

ليكن لك ما تريد ياصاحبى ، ولنطو معاً هذه الصفحات السود إلى حين ، ولنستقبل بشائر البحر فى هذا النسيم الذى يبلغ وجوهنا من بعيد فيصافحها مصافحة الحبيب الرفيق ، ويمسها مس الحرير الرقيق ، ويداعبها مداعبة المسامر الأنيق ! ..

إن بيننا وبين البحر لعشرات من الكيلات ، ومع ذلك فها نحن أولاء نحس جماله وبهاءه ، ونشم عبيره ونتنسم هواءه ، فمرحباً بك أيها البحر الجميل ، وأهلا بك وسهلا أيها النسيم البليل ! .

وإنا لعلى قيد خطوات من النيل المبارك الذى يوازى شريط القطار عن قرب ، ويسايره ويسامره فيزيد الرحلة روعة ورُواء ، وسروراً وهناء : النيل الكريم الذى جعل صحراء الوادى جنة فيحاء وروضة غناء وحديقة زهراء :

صفت مرآته ، وجلاه جال ... فلاح كأنه ذوب اللآلى
وغازلت الحدائقُ شاطئيه ... وألقت فوقه خضر الظلال
فكم غصن قد ارتسمت حلاه ... عليه تهزه ريح الشمال
ونخل باسقات كالعذارى ... تثنىّ فى غدائرها الطوال
خلعن الحسن منعكساً عليه ... فآنسن الحقيقة بالخيال
لئن كان الألى عبدوه ضلوا ... فرب هداية تحت الضلال[1]

(١) اهتدوا أولا إذ قدروا نعمة النيل العظمى حق قدرها ، ولكنهم أسرفوا فضلوا ، فستر ضلالهم هداهم .

أحب النيل حُب أبى وأمى وأهوى مصر فوق دمى ومالى !

ولولا فضل الله على مصر العزيزة ممثَّلا فى النيل لما أزهر نبات ، ولا استقرت حياة ، ولا نهضة مدنية : « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون ، يُنبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » ، « أو لم يروا أنانسوق الماء إلى الأرض الجزر فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ، أفلا يبصرون » ؟ « ونزلنا من السماء ماء مباركا ، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج » !.

* * *

هذه مشارف دمياط : المدينة العاملة الدائبة الساهرة ، التى لاتكل ولا تمل ، والتى تُعد فخراً للصناعة المصرية والجِد المصرى ، فما فيها عاطل أو متسول ، وما فيها من متكل على الأحساب أو الأنساب ، وما فيها شاب يأكل من عرق أبيه أو أمه وهو قادر على الاكتساب ، بل ينهض بتبعات نفسه وهو فى الثانية عشرة من عمره ، فترى المصانع والمتاجر والمحلات حافلة عامرة بالرجال والفتيان ، كل يجاهد فى سبيل القوت ، ويحارب من أجل الحياة ؛ وتدخل البيوت والمنازل فترى فيها المغازل والمناسج وقد جلست إليها الفتيات والسيدات ، يشاركن

أزواجهن أو أولياء أمورهن فى تحمل متاعب الحياة وتكاليف العيش ! .

هذه مشارف دمياط : الثغر الهادىء والمدينة الجميلة التى سارت الأنباء وضُربت الأمثال بفتنة نسائها وروعة خرائدها ، حتى ليعبر كثير من الأدباء الكبار عند وصف فتياتهم بقولهم :

« فتاة كأنها من دمياط » ! .

هذه مشارف دمياط : البلدة التى قضيت فيها جانبا من شبيبتى ، فتلقيت فيها الدروس الابتدائية بالمعهد الدينى العلمى الإسلامى ، ورأيت فيها أياما أرق من نسيم السَّحَر ، وأنضر من فاتن الزهَر ، وأشهى من يانع الثمر ، كما رأيت فيها أياما عصيبة جعلت الحياة فى ناظرى أضيق من سَم الخياط ، فكأنى يومذاك جندى حُط من مقامه ، وجُرد من وسامه ، وأرغم على تسليم حسامه ؛ وذقت فيها الشهد الخالص كما تجرعت السم الزعاف ، وأفادتنى كما أخذت منى ، وآختنى كما عادتنى وكان لى فيها أحوال وأحوال :

كم مربى فيك عهد لست أذكره ومربى فيك عهد لست أنساه !

هذه مشارف دمياط ، ومن بينها ذلك المستشفى البغيض الذى يذكرنى بأسوأ الذكريات ، ويثير فى خاطرى أشباح العلة والمرض ، وتهاويل الخوف والفزع ، وعقارب الغيظ والحنق ، ففى هذا المستشفى المنعزل الصامت رقد شقيق الأستاذ السعيد الشرباصى — بورك له

فى عمره — أسابيعَ وأسابيع فى سنة ١٩٤٢ م ، يجاهد العلة ويصارع الداء ، حتى نجا بفضل الله ورحمته . وخرج من المحنة القاسية راضيا صابرا ، حامداً شاكراً ، معافى ذاكرا لله نعمته ومنته . وكنت يومها أحدِّث نفسى وأهيىء أمرى لأزوره من القاهرة حيث كنت أطلب العلم بكلية اللغة العربية — حرسها الله معقلا للغة القرآن وأدب العرب — . وكنت يومها أجد من ثورة الشباب وحماسة الفتوة ، والحمية الوطنية والعزة الأزهرية والغيرة على الكلية مايدفعنى إلى مواقف ثائرة فيها مالا يُرضى الكثيرين من ولاة الأمور ، قولا وكتابة وعملا ، فإذا بأولئك المسيطرين الغاشمين يرغموننى على أن أزور أخى وهو على سرير مرضه مكرَها مستخفيا ، إذ طوردت فى كل مكان ، وحوربت فى حريتى ، وراقبتنى عيون كان كل همها أن توقعنى تحت طائلة الاعتقال ، أو تنزلنى ضيفا على أحد السجون ، أو « تحجزنى » على الأقل أياما مريرة « تحت التحقيق » ! ..

وزمجر المستبد الطاغية قائلاً للأرصاد والأجناد : فليحلَّ عليكم غضبى إن لم تكبلوا هذا المتمرد الجرىء بالأغلال والأصفاد ، فإن لم تأتونى به فخذوا أنتم مكانه من غيابات الاعتقال ؛ لقد نالنى بالنقد والتجريح ، والويل لمن تحدثه نفسه بالتطاول على مقامى الجليل ! ! .

***

والويل كل الويل للناس من زمن تكال لهم فيه التهم جزافا ،

وينكلُ فيه بالأبرياء تنكيلا ، ويشردفيه الأحرار المجاهدون تشريدا ، وتمسى وأنت آمن فلا تصبح إلا ومن حولك أغلال وسلاسل ، دون ذنب أذنبتَه أو جرم جنيته أو إثم أتيته ، سوى أنك تحب وطنك ، أو تغار على بلادك ، أو تطالب بحق من حقوق جماعتك ! .

والويل كل الويل للناس يوم تصادَر حرياتهم ، وتكم أفواههم ، وتقيد أقلامهم ، فعلى الصحف رقباء ، وعلى المجلات رقباء ، وعلى النوادى رقباء ، وعلى المقاهى رقباء ، وعلى دور العلم رقباء ، وعلى المساجد رقباء ، وعلى جمعيات الإسلام والبر والإحسان والعلم رقباء ، وفى كل منعطف ومكان يتخوف المرء من جاسوس أو شيطان ! .

ألا فليلعن الله تلك الأيام الأثيمة ألف لعنة ، ولتذهب إلى الجحيم دون عودة ، فقد فعلت بنا الأفاعيل ، وأرتنا النجوم فى الظهر الظهير ، فإلى السعير و بئس المصير ! .

دعنى ياصاحبى دعنى ! . . دعنى فى سبحتى وغمرتى ، فما بى الآن من حاجة إلى هوائك أو مائك ، وإن ذكرياتى لأعز علىّ من كل هذا المتاع ، فلا تعاودنى بالنصح والتوجيه ، ولا تثقل علىّ بتكرار التذكير ! .

لقد خرجتُ يومها من القاهرة مستخفياً ، قد هجرت ملابسى المألوفة ومظهرى المعتاد ، وانسللت مع البازى علىّ سواد ، وأخذت أتفلت تحت

ستار الخفاء من أعين المطاردين والرقباء ، متنقلا بين القاهرة وطنطا وبنها والمنصورة وفارسكور ودمياط . . . وهناك وفى حجرة من حجرات هذه المصحة المنعزلة ، دخلت تحت ستار الليل البهيم على شقيق وقسيمى فى غربتى ونضالى مع الحياة والأحياء ، فزادنى مرضه هولاً على هول ، وضاعفت علته أحزانى وأشجانى ، فآلمنى اللقاء وأبكانى ، ولكنه مازال بى يشع على بأمله الفسيح ، وحسن ظنه بربه ، وجميل صبره على أيامه ، حتى أعاد إلىَّ إيمانى ، وجعلنى أوقن أنها غمرة ستنجلى ، وسحابة صيف عن قليل تقشع ! ! . . وكذلك كان ، إذ مسحت يد الرحمن الرحيم على الجرح الأليم بالبرء والنعيم ، ورحمة الله قريب من المحسنين : « أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أ إله مع الله ؟ قليلا ماتذكرون » ! .

أغضبتَ منى يا رفيقى لأننى أعرضت عنك ، وآثرت عليك حق الذكرى وواجب الشقيق ؟ معذرة إليك ، ولك العتبى حتى ترضى ، فلا تؤاخذنى بما نسيت ، ولا ترهقنى من أمرى عسرا ، وإن خالفتك بعدها فلا تصاحبنى ، قد بلغت من لدنى عذرا ، ووالله إنى لمقهور معذور[1] .

---

(١) من مقال للأديب الكبير الأستاذ على الطنطاوى : « ولا تقولوا إذا سمعتم حديثى : هذا رجل لايتكلم إلا عن نفسه ؛ فكذلك الأدباء كلهم ، لايتكلمون إلا عن =

هذه دمياط ، وقد كان لك فيها جولات وصبوات ، وغدوات وروحات ، منها المذكور ومنها المطمور ، فلتسر فى أرجائها ، ولتطوّف بأنحائها ، متأنياً متمهلا ، أو مسرعاً متعجلا ! .

ما بال شوارعها تبدو اليوم ضيقة ، وقصورها صغيرة غير عالية ؟ . . ألأنها تبدلت وتغيرت ، أم لأنى شببت عن الطوق ، وشهدت عمائر القاهرة والإسكندرية وميادينهما الفسيحة الواسعة ؟ . . دعك من هذا وولِّ وجهك شطر الفوّال الشهير « الحاج محمد التابعى مصباح » فإنك لم تفطر بعد ، ودمياط إنما سار ذكرها بسمكها وفول التابعى بين الآكلين ! . . وليت الذين يسخرون من هذا الطعام الشعبى ، ويحسبونه زادا لموائد الفقراء ، تسعدهم الأيام بأن يأكلوا منه عند ذلك الرجل الصناع ! ! [1] .

= أنفسهم ، ولكنهم إذ يصفون أحلامها وآلامها يصفون أحلام الناس كلهم وآلامهم ، فهم تراجمة العواطف وألسنة القلوب وصدى الخواطر ، حتى ليقول القارىء إذ تمر به آثارهم : ماهذا ؟ . . إن فى هذا التعبير عما أحس به ، إنه وصف لى أنا وحدى ؛ وما هو له وحده ؛ إنه وصف لكل نفس بشرية . . . ألا ما أعظم فضل الأدباء على الناس ، ولكن الناس لا يشكرون » ! . انظر مجلة الرسالة بتاريخ ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٦ م .

(١) مما نشر عن الملك فاروق الأول أنه يتناول ذلك الغذاء المصرى فى بعض الأحيان ، ولقد سئل ذات مرة عن غذاء الفول فقال : « إنه طعامى وطعام شعبى ! » .

(٣)

هذه رأس البر

وبعد ساعات تركنا دمياط قاصدين رأس البر ، فامتطينا السفينة البخارية الصغيرة (اللنش) وما كدنا نجلس فيها حتى شممنا روائح المصيف ، فهذه هى السهولة فى الثياب ، والتجرد مما لا حاجة إليه من ألوانه وأنواعه ، وهذه هى المساواة بين العظيم والصغير ، والغنى والفقير ، والقريب والبعيد . وها هى ذى السفينة تمخر عباب النيل الزخّار ، وعن أيماننا وشمائلنا خمائل وأدواح نظمتها يد الخالق المبدع ، من النخيل وأشجار الليمون والجوافة والأنبج « المانجة » . . فياله من منظر سحرى ينسى المهموم همومه ، ويسلب المغموم غمومه ، ويوحى بالتفاؤل والبشر ، والغبطة والسرور ! . . والفضل فى ذلك كل الفضل للنيل العظيم :

يا أرض مصر تحية وسلام ... وسقاك من صوب الغمام ركام[1]

بل أنت غانية عن المطر الذى ... يهمى ، فإن النيل فيك غمام

نهر تبارك ماؤه ، فتكاد أن ... تُمحى بطهر مياهه الآثام

---

(١) الركام : السحاب المتراكب بعضه فوق بعض .

ويكاد لو رشف العليل زلاله يُشفَى العليلُ ، وتذهب الأسقام
يحيي البلاد بمائه ، فكأنه الرو ح التى تحيا بها الأجسام
إن شابه كدر ففي أكداره صفو ، وفى فيضانه إنعام !

ولكن ما بال السفينة تسرع على غير عادتها ، وما بالها تتأرجح فى سيرها ؟ . إنها أمواج النيل الطاغى الذى جاء اليوم مذكراً ومؤدباً : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ! . . . إنه النيل القهار الجبار ، الهدار الموار ، الذى طغى موجه وعلا صخبه[1] ، فزعزع الجسور وقوض الدور ، وأهلك الحرث والنسل ، وهدد البلاد والعباد بغمرة من السوء والعدوان ، لا يمنع سيلها إلا الرحيم الرحمن ! . إنه النيل العظيم المبارك الذى عهدناه وفياً ، يأتى بميعاد ، ويسير باقتصاد ، ويروى باعتدال ، ويحمل إلينا الخير والبركة والنماء . . . ما باله فى هذا العام قد غير خطته وبدل شيمته وخالف سيرته ؟ . . أمِنْ تأثير التجارب الواسعة للقنابل الذرية — كما يقولون — كان هذا الفيضان حقاً ، أم أن وراء ذلك سراً خفياً وأمراً مطوياً ، لو طلبناه لوجدناه ، ولو تدبرنا فيه لاتعظنا منه واعتبرنا به ؟! . .

لقد تكاثفت المحن واشتجرت الفواجع وتراكمت المصائب فوق

---

(١) فى صيف هذا العام (١٩٤٦م) طغى النيل طغيانا رهيبا كاد يودى بالبلاد لولا رحمة الله وجهود البررة من أبناء النيل .

مصر ، فلم يكتف الدهر بما نلقى فى وطننا وحرياتنا وكرامتنا وأخلاقنا ودِيننا ، بل أضاف إلى القائمة فاجعة أخرى ، فتنكر النيل المبارك بعد طول وفاء ، وطغى بعد مألوف اعتدال ، وجار بعد معروف قصد واهتداء . وكأنما أرادت الأقدار أن تخز جنوبنا ، وتصفعنا على وجوهنا هذه الصفعة القوية القاسية ، لعلنا نتنبه بعد طول رقاد ، ونصحو بعد عميق هجوع ! ولكن هيهات هيهات ! .

رفقاً بنا أيها النيل ومرحمة ، فقد عهدناك أميناً وفياً ، وهادئاً وديعاً ، فإن ثرت اليوم لتأديب أو تهذيب ، فاجعل ثورتك إلى حين وغضبك بمقدار ، ففينا الأطفال والنساء ، وفينا المساكين والفقراء ، وفينا من لو استطاع سبيلا إلى ما ترى من مهازل ومآثم لسعى إليها سعى الجندى المجهول يروم الشهادة فى ميدان الجهاد ! .

وسبحانك ربى سبحانك ، جعلت كل شىء وسطاً ، وقدرت كل شىء تقديرا ، فلو زاد الخير — وهو خير — عن حده لانقلب إلى ضده . فجرعة الدواء — وهى دواء — لو زادت عن نسبتها المحدودة لكانت داء أخطر من الداء ، ولقربت صاحبها من الفناء لا من الشفاء . وهذا ماء النيل ، ذهب سائل ونضار جارٍ ، ولكنه حينما يزيد عن حد الاعتدال يصبح سماً زعافا ، ونكبة نكباء تجيَّش لها الجيوش ، وتُدفع كما يدفع البلاء . . . وهكذا كل شىء فى الحياة ، إن لم يعرف قصدَه وحدَّه

كان سوءاً وشراً ، ونكبة وخطراً ، و « إن المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهراً أبقى » ، « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فلن يشاد الدين أحد إلا غلبه الدين » ، « فسددوا وقاربوا » . وصدق التنزيل : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » ، « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسورا » .

* * *

وفى السفينة السريعة التى ركبناها من دمياط إلى رأس البر ، جلس قبالتى شاب مصرى كأنه جامعى ، موفور الشباب غض الإهاب ، تلوح عليه أمارات الغنى الفاحش ، والترف المفرط ، والنعمة السابغة ، والحياة الرافهة ، وجلست بجواره فتاة يهودية جميلة فاتنة ، وأخذ الشاب يحادثها أو يسامرها مسامرةً عرفنا منها أنهما حبيبان أو صديقان ، أو صائد وقنيصة ، أو سيد ومسود ، فالفتاة قد فتنت الشاب بجمالها وسحرها ، فملكت عليه أمره وقادت زمامه ، فإشارتها منارته ، وصوتها أغنيته ، ورضاها أمنيته ، وإنها لتثقل عليه فى الخطاب أحياناً فيرضى بهذا الدلال بل يسر به ، وإنها لتظهر الضيق أو تتظاهر به فيحاول الشاب أن يروِّح عنها بمختلف الوسائل والأسباب مهما كلفه ذلك من الجهد والمال ، فهو مسحور بها مأخوذ ، خاضع خاشع ، ينفق لتتمتع ، ويوزع لتجمع ، ويتعب لتستريح . .

ومن هنا أُتينا أيها المصريون ، بل أيها الشرقيون أجمعون ! . .

لم نؤت عن طريق جيش ضربنا بالحديد والنار ، ولم نؤت عن طريق مكيدة حربية أو خدعة سياسية فحسب ، بل أُتينا من تميع الأخلاق وضعف القلوب وفتور العزائم وطغيان النفوس و بغى الشهوات ؛ واستطاع أولئك الفتيات الماكرات أن يخدعن شبابنا عن وطنهم ودينهم وأخلاقهم ... فاحذروا أيها الشباب ! . .

أنا موقن أن هذه الفتاة اللاعبة الماكرة ، بل تلك الحية الخبيثة الرقطاء تستطيع أن تؤثر فى هذا الشاب العاشق المستهام فتسىء التأثير . تستطيع أن تزين له الاستهانة بوطنه فيستهين ، وتستطيع أن تحرضه على الشقاق مع أسرته والتمرد على أبيه وأمه فيستجيب ، وتستطيع أن تهوّن فى نظره بذل المال ذات اليمين وذات الشمال على ثيابها وعطورها وزينتها ومطالبها اللاهية الصاخبة ، فيكون من المسارعين الملبين ، وتستطيع أن تتلف أخلاقه وتفسد طباعه وتهدم شرفه وكرامته ودينه ومروءته ، ومع هذا يظن أنه من الرابحين ! . .

فياضيعة الشاب الذى يُسلم عنانه وقياده إلى فتاة سلاحُها جمالها وفتنتها . إنه لن يعرف سواء السبيل بعد أن أسلم زمامه للشيطان .

فياشبيبة مصر فى كل ناحية من نواحى الوادى الكريم ، بل

يا شبيبة العروبة فى كل قطر شقيق ، احذروا المرأة العابثة فإنها الأفعوان الذى يعميكم عن كل خير ، ويجمع فوق كواهلكم كل شر ، واحذروها خاصة إذا كانت غريبة عنكم دخيلة عليكم ، فإنكم إن عرفتموها أو ألفتموها كُتب عليكم المصير المحتوم ، وأنتم تعلمون ! .

واذكروا حين تعشقون أن لكم بلاداً لها حق فى قلوبكم ، وأهلا لهم نصيب من جهودكم ، وعشيرة أنتم حماة ذمارها وأُسْد غابها . ومَن للغاب إذا ذلت الأسود ، أو من للحمى إذا استأنثت الرجال . واستنوقت الجِمال ، وهانت الأبطال ، فاستعبدتهم ربات الحجال ؟.

* * *

وأخيراً هذه رأس البر بعد طول الشوق وحرقة الحنين ولذعة التلهف ، وشدة الصبر ومرارة الانتظار :

خليلىَّ لو أحببتما لعلمتما مكان الهوى من مغرم القلب صبه
تذكروا الذكرى تشوق، وذو الهوى يتوق ، ومن يعلق به الحب يُصْبِهِ
غرام على يأس الهوى ورجائه وشوق على بعد المراد وقربه !

هذا هو المصيف المصرى الهادىء الجميل ، هذا ملتقى النيل الكريم بالبحر الوسيع ، هذا مجال الشباب والفراغ والجدة ، وتستطيع مع هذا أن لا تجعله مفسدة ، هذا مستراد الراحة والهدوء ، هذه مصحة الأبدان والقلوب والعقول ؛ هذه بقعة جَمَّلها الله بأفضل ماجمل به كونه العريض .

هـذه رأس البر ، فانس كل شيء ، وودِّع كل هم ، واترك كل شاغل من شواغل دنياك ، وادخل رحابها خاليا عاريا مما أثقلت به كاهلك من عناء ومشقات ، واترك قبل أن تطأ الحمى كل ما يربطك بالمعترك الذى كنت فيه والذى خلفته وراءك . . . اترك الكتاب والصحيفة والمجلة ، والمهنة والوظيفة ، والماضى والحاضر والمستقبل ، والهموم والهدوم ، والمال والأعمال ، والآلام والآمال . وافرغ لمتع الهوى والشباب ، فى طهارة وصفاء إهاب ، واسبح فى ملكوت ربك الرحيب ، وتنقل فى فردوسه العجيب ، وإلا فيا ضيعة ما أنفقت من جهدك ووقتك ومالك فى طريق الوصول إلى هذا الفردوس المأمول !.

لقد سعيتُ إلى رأس البر اليوم كما سعيت إليها منذ عشر سنوات ، فالظروف هى الظروف ، والأسباب هى الأسباب ، والأحوال هى الأحوال ، كأن لم يتغير شيء أو لم يمر زمن . . . فقد سعيت إليها من قبل وأنا مريض مكدود مجهود ، واليوم أسعى إليها وأنا مرهق الأعصاب واهى العزم ضعيف المنة ؛ ولقد سعيت إليها وأنا على خلاف مع مَنْ أحب وأجل ، واليوم أسعى وقد زادت شقة الخلاف ، وثقلت وطأة الشقاق ، ورحم الله عمر يوم قال : إن الناس أشبه بزمانهم منهم بآبائهم !. فكيف إذن يلتقى متنافضان أو يتفق جيلان ؟ . ولقد سعيت إليها أمس واليوم فى أعقاب الصيف حيث يرق الهواء ويعتدل الجو ،

ويهدأ المصيف من غوغاء المتظاهرين بالغنى والجاه ، فيحلو لأمثالى من المحدودين المجهودين أن يجدوا الطب لقلوبهم ، والسكينة لأرواحهم ، والفتوة لأجسادهم !!.

وها هي ذى الطبيعة أمامى كما خلقها الله و برأها منذ القدم ، لم تتغير ولم تتبدل ، فهذا هو الهواء وما بى من قدرة على وصف تأثيره أو تخديره ، وهذا هو الماء ولو استطعت لقضيت عمرى بين أمواجه ، وهذه هى الشمس التى تنفع وتفيد فى حالتى رقتها وقسوتها ، أو لينها وشدتها ، وكأنها تخلق الحياة خلقا ، وتبعث القوة فى الهامد بعثا :

هى أم الأرض فى نسبتها ... هى أم الكون والكون جنين
هى أم النار والنور معا ... هى أم الريح والماء المعين (١)
هى طلع الروض نَوْرا وجنى ... هى نشر الورد ، طيب الياسمين (٢)
إنما الشمس وما فى آيها ... من معان لمعت للعارفين
حكمة بالغة قد مثلت ... قدرة الله لقوم عاقلين !

وهذا هو الشاطىء المنبسط المترامى الذى لم تفسده الصناعة والتعقيد ، و إن شاطىء رأس البر ليزهو بهذه الميزة على غيره من الشواطىء ..

وهذا هو البحر الذى طوى القرون وصاحبته السنون ؛ البحر الأبيض المتوسط ، أو بحر العرب كما كان يسمى قديما بحق ، يوم كان

---

(١) النابع من العيون (٢) نشر الورد : رائحته .

للعرب عز وسلطان ، ومجد قام بنور الإيمان لا بقوة السِّنان ، وهذا هو ماؤه الأزرق[1] ذو الموج الصاخب العالى الذى لا ينقطع ، وذو المدى البعيد الذى لا يدرك ؛ ولقد ترمى ببصرك فى داخل البحر لتتعرف نهايته ، فيخيل إليك بمخادعة بصرك لك أنها منك على بضع مئات من الأمتار ، ولكن الواقع أن الغاية هنالك هنالك ، بعيدة جدا ، حيث تقضى الأيام والليالى فى قطع الطريق إليها ! . .

وهذا هو النسيم الذى ليس عليلا كما يصفه الأدباء ، ولكنه قوى منعش ، ولو اعتل لأملّ ، وحسبك من الهواء صفاؤه ونقاؤه ، وهبوبه فى جو معتدل لا يبلغ أن يكون إعصاراً ، فذلك دواء لمن رزق الفحولة فى جسمه وصحته ، ولم يكن هزيلا يخاف هبوب النسيم فى قوة مع اعتدال ! . . .

هذا هو النسيم الذى قال فيه الرجل العظيم ، رحالة البادية وكشاف الصحراء والرياضى الفارس ، أحمد محمد حسنين باشا :

---

(١) اكتشف عالمان أمريكيان السر فى زرقة مياه البحر ، إذ وجدا فى كل بوصة مربعة من ماء البحر نحو مليون ونصف مليون ذرة مثل ذرات التراب ، يبلغ قطر كل منها جزءاً من خمسين ألف جزء من البوصة ، وهذا الذرات تعكس الضوء إلى سطح البحر ، وفى أثناء ارتداد الضوء إلى السطح يكون قد رشح فيمتص الماء اللونين الأحمر والأصفر منه ، ويترك الأخضر والأزرق والبنفسجى ، فيتكون منها مجتمعة لون « النيلة » الذى تظهر به مياه البحر . وقال آخرون : إن لون ماء البحر يبدو أزرق لأن لون السماء ينعكس فوقه ولون السماء أزرق كما هو مشاهد .

«إننى أدين بحياتى وصحتى وشبابى ونشاطى للهواء الطلق النقى الصافى» !.

هذا هو النسيم الذى يصافح الصعلوك فيسعده ويفرحه ويسره ، حتى يجعله ملكا وإن كان فى زى مسكين ، وسلطانا وإن لم يكن فى عرف الناس من السلاطين . ولقد قيل لأعرابى :

كيف تصنع فى البادية إذا انتصف النهار ، وانتعل كلُّ شىء ظلَّه (والتهبت الرمال ، وتسعرت الشمس) ؟ ! . فقال : وهل العيش إلا ذاك ؟ يمشى أحدنا ميلا ، فيرفَضُّ عرقا كأنه الجمان ، ثم ينصب عصاه ، ويلقى عليها كساه ، وتقبل الرياح من كل جانب ، فكأنه فى إيوان كسرى ! ! . .

نعم صدقت أيها الأعرابى ، فلقد تنعم بهذا الهواء حينئذ أكثر مما ينعم به صاحب الإيوان ، أو سيد العرش والسلطان ، ولقد تكون حينئذ أهدأ منه بالا ، وأقل هموماً وأشغالا ، وأهنأ نفساً من ذلك الذى أثقلته الشئون والشجون ، ووقذته التبعات والتكاليف ! ..

* * *

هأنتذا أيها البحر بسلطانك وصولجانك ، بسعتك وفسحتك ، بشعرك وسحرك ، بهديرك وزئيرك ، بجمالك وجلالك ، وكم فيك من آيات للمستبصرين ، ولكن أكثر الناس لا يعقلون ! ..

كم فيك أيها البحر من أسرار ، وكم شاهدتَ من أحداث وأخطار ،

وكم طويت من أعمار ، وكم رقد فيك من بررة وأشرار ، وكم تكمن فى مياهك اللينة من نار ! ! . .

حينما يعنف الصيف أيها البحر تأتى أنت فتلطف من عنفه وشدته ، وترفع الإنسان عن مستوى الطين والتراب إلى مستوى السماء والسحاب ، فكأن الإنسان لديك ليس إنسانا فى دنياه الأرضية ، ولكنه مَلَك يشف ويرف حتى يصبح روحاً لا يُرى ، بل يغرق وسط هالة من النور ، وكأنه ليس عبد المادة ، ولكنه معنى لطيف قد امتزج بالطبيعة الجليلة الخالدة ، فاتحد بها وصار جزءاً منها . . .

وشمسك أيها البحر صافية قوية ، تمثل أمامك جبهة المحافظة والاستمساك ، فكأنما تخشى شمسك أن يفقد الناس عندك رجولتهم من ملاطفتك ومنادمتك ، فتذكرهم بهذه الأشعة القوية أن لهم رجولة فيها القوة والفتاء ! ! .

دعونى هنا أستريح : أشم الهواء وأرى الماء وأتمتع بالضياء . . . دعوا أذنى تستمع إلى هدير الموج القاصف ، ودعوا قامتى تستقبل الريح العاصف ، ودعوا عينى تنبهر بذلك الضوء الخاطف ، ودعوا حواسى تستيقظ ذلك الاستيقاظ الجارف ، ودعونى للطبيعة المتبرجة المتبلجة المجلوة ، فما أحس بكيانى وجنانى وبيانى إلا فى رحاب هذه القوة المجلجلة المزلزلة التى تنقل المرء من حال من أحوال ! ! . .

دعونى هنا أستلقى على مقعد وثير مستطيل ، وأرمى بناظرى إلى الأمام ، وأرخى أعضائى كل عضو فى ناحيـة ؛ وأتجرد من ثيابى الثقيلة ، وأتخفف من أحمالى وأوزارى ، وأظل هكذا حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ! . .

فليسِرْ الزمن أو فليقف ، فقد ألغيته الآن من حسابى ، ولتتحرك الدنيا أو فلتسكن ، وليقم العالم أو فليقعد ، ولتدر الـكرة الأرضية أو فلتكف عن الدوران ، فأنا هنا ودنياى هنا ، ولست أريد الانتقال حتى يرث الله الأرض ومن عليها :

وصدقت فى حبى فلست مبالياً أن أُمنح الدنيا به أو أُمنعا !!

لقد سئل أحد الرجال المفكرين العائدين من الحرب بعد سنوات جهاد ثقال : ما الذى ستفعله وقد عدت من الميدان المشتعل إلى بيتك الهادىء ؟ فقال : الأمر فى غاية السهولة واليسر ، سأجُرُّ مقعـدا من مقاعد الجلوس المريحـة إلى شرفة منزلى المطلة على النهر الجـارى ، وسأجلس فوق المقعد ثلاثة أسابيع ساكناً جامداً ، لا أتحرك ولا أتململ ، بل أتطلع إلى الأمام فى هدوء وراحة بال ، وأفتح رئتى للهواء ، وأتمتع برؤية المـاء ، بلا عمل أو عناء ، وبعد الأسابيع الثلاثة سأبدأ أفـكر فى هز المقعد الذى أجلس عليه ، رويداً رويدا ، وقليلا قليلا ، إلى ما شاء الله ! .

وكذلك أريد أن أكون هنا ؛ أريد أن أهدأ وأستريح بلا تحديد وقت أو ارتباط بميعاد ! ! . .

لقد تذكرت فى هذا الموقف كلمة المنفلوطى الأديب التى يحبب فيها الطبيعة إلى الشاعر ، ويدعوه إلى التمتع بما فيها من جمال وجلال فيقول :

« أنت شاعر يا مولاى ، وقلب الشاعر مرآة تتراءى فيها صور الكائنات ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها وجليلها ، فإن أعوزتك السعادة فتش عنها فى أعماق قلبك ، فقلبك الصورة الصغرى للعالم الأكبر وما فيه ! .

السماء جميلة ، والشاعر هو الذى يستطيع أن يدرك سر جمالها ، ويخترق بنظراته أديمها الأزرق الصافى ، فيرى فى ذلك العالم العلوى النائى مالا تراه عين ، ولا يمتد إليه نظر .

والبحر عظيم ، والشاعر هو الذى يشعر بعظمته وجلاله ، ويرى فى صفحته الرجراجة المترجحة صور الأمم التى طواها ، والمدن التى محاها ، والدول التى أبادها ، وهو باق على صورته ، لا يتغير ولا يتبدل ، ولا يبلى على العصور والأيام .

أنت كالطائر السجين فى قفصه ، فمزّق عن نفسك هذا السجن الذى يحيط بك ، وطر بجناحيك فى أجواء هذا العالم المنبسط الفسيح ،

وتنقل ماشئت فى جنباته وأكنافه ، واهتف بأغاريدك الجميلة فوق قمم جباله ، ورءوس أشجاره ، وضفاف أنهاره ، فأنت لم تخلق للسجن والقيد ، بل للهتاف والتغريد » ! ! . .

فدعونى يا بنى آدم دعونى ، فما بى حاجة إلى دنياكم الحقيرة الهينة ، ومابى رغبة فى عيشكم الدون ، وإن يوما هنا أيها الناس كألف يوم مما تعدون فى دنياكم التافهة ، وإن الحياة هنا لتوزن من نفاستها وأصالتها ، وسموها وعلوها ، وندرتها وعزتها بأدق الموازين ، وأما حياتكم فتكال بأوسع المكاييل ، لأنها من التراب تقوم ، وإلى التراب تسعى ، وفى التراب ترقد وتفنى ! . .

دعونى ، فقد استولى المكان منى على الفكر والجنان ، وسيطر الشاطىء بجماله وجلاله على مالى من جسم وكيان ، وحس ونفس ، وشعور وخواطر :

قالت — وأبثتها وجدى فبحت به — :

قد كنتَ عندى تحب الستر فاستتر !

ألست تبصر من حولى ؟ فقلت لها :

غطى هواك وما ألقى على بصرى !

لقد كنت أعيش فى دنياكم — أيها القطعان السائمة الشاردة —

جسدا بلا روح ، وجثمانا بلا قلب ، ومبنى بلا معنى ؛ ولقد آخذ معكم فيما تأخذون فيه من أسباب وشئون ، فأتحرك كما تتحركون ، وأعمل كما تعملون ، ولكننى هناك ، هناك بعيداً عنكم حيث لاتعرفون ! . . فشتان مابين ظاهر وخفى ، وما بين منشور ومطوى ، وويل للشجى من الخلى ! . .

حدّث ابن بكار قال : رأيت رجلا بناحية الثغر ، عليه ذلة وخضوع ، واستكانة وخشوع ، كان يكثر التنفس ، ويخفى السكوت ، ويبدى الأنين ، وحركات المحب لاتخفى فى شمائله ، ولايسترها بتصاونه ، فسألته فى بعض أيامه وقد خلوت به عن حاله ، فكان جوابه وقد تحدرت الدموع من عينيه :

أنا فى أمْرَىْ رشاد بين غزو وجهاد ! !

بدنى يغزو عدوى والهوى يغزو فؤادى !

دعونى أنطلق وحريتى ، أهتف وأغرد ، وألعب وأطرب ، وأهيم على وجهى كما أشاء ، فقد وقذتنى دنيا كم ، وأرهقتنى قيودكم ، وأثقلتنى أغلالكم ، وهدّتنى أحمالكم ، فدعونى هذه البرهة أنصف حريتى ، وأغترف لذتى ، وآخذ متعتى ، وسأعود بعد قليل أو طويل إلى دنيا كم ، ولكم منى عندها ما تشاءون :

وأيام الصفاء وإن توانت يطارد ركبهـــا نأى سريع
إذا ذهب الربيـــع ولم أمتّع بنضرته فلا عاد الربيع !

***

ليتك كنت معنا هنا يا « سـعيد » ! أيها الشقيق المجاهد فى سبيل العـلم والأدب ، فلقد حرمت نفسك من الراحة فى عطلة العيد ، وبقيت فى القاهرة تصطلى بنارها وحرورها ، وتوالى طبع كتابك الجديد : « تطور الـكتابة العربية » الذى سيكون صوتاً لك يرفع ذكرك بين المفـكرين العاملين ! . . . ليتك كنت هنا يا « سعيد » لتنعم كما ننعم ، وتتمتع كما نتمتع ، فأنت أحوج منا إلى هذه اللذة وتلك المتعة بعـد ذلك المجهود الشاق الذى أفنيت فيـه عاماً أو يزيد ! ! . .

(٤)

أشواك حول الورود

على أنه متى كان الخير خالصاً لأهله كله ؟ ومتى كان فى الدنيا حلوى بدون نار ، أو ورد بلا أشواك ، أو جنة بلا مخاطر وأهوال ؟ .

من أشواك رأس البر أنك ترى الغلاء فيها فاحشاً ومستحكما ، وبخاصة إذا أردت أن تنزل نزلا راقياً يهيىء لك أسباب النظافة والراحة ، وتطعم طعاماً يفى بحاجات بدنك ، وتجلس جلسة ساكنة لا ضجيج فيها ولا جلبة ! . .

وليت الفائدة فى هذا الغلاء المستحكم كانت عائدة على المصريين أو راجعة إلى الوطنيين . ولكن الواقع على العكس من ذلك مع شديد الأسى والأسف ؛ فالفنادق والمطاعم والمشارب فى رأس البر كما هى فى الإسكندرية ، كما هى فى كل مدينة مصرية ، فى أيدى الأجانب من اليهود واليونانيين والأروام وغيرهم ؛ وإن نظرك ليصطدم أول ما تنزل رأس البر بأسماء : « سيسل ، وأصلان ، وسافواى ، وبريفاس » وغيرها مما يدل على أن هذه المتاجر والفنادق والملاهى أجنبية تستنزف دماء المصريين ، وتتركهم أشباحاً يقتلها الفقر والجوع والذلة والمسكنة

والحاجة ؛ فماذا لكم فى بلادكم أيها المصريون ؟ . إنكم لغرباء وأصحاب الديار هم الدخلاء ، فابكوا كثيراً واضحكوا قليلا ، واعلموا أنكم فى وطنكم أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وسبحان من لو شاء لبعثكم من موتكم فجعلكم رجالا تغارون على الحقوق والحرمات ! .

وليس معنى هذا أن الغلاء فى رأس البر فريضة محتومة ، بل أنت تستطيع فى المناطق الشعبية هناك أن تعيش كما يعيش الفرد المتوسط فى الأحياء الوطنية بأية مدينة من المدن المصرية ؛ ولكنك فى هذه الأحياء الشعبية ستضطر إلى أن تحتمل الكثير ، وأن تتساهل فى الكثير ، فأنت ستعيش فى منطقة مزدحمة بالساكنين والنزلاء ، وأنت ستجد الأكواخ (العشش) متلاصقة مشتجرة ، لا يفصل بين حجراتها إلا فاصل رقيق لا يحجب ضوءا ولا يستر صوتا ، وقد تنام مثلاً وحيداً فى حجرة ، وبجوارك رجل مع زوجته لا يفصل بينك وبينهما إلا حاجز رقيق من البردى ، وقد تسمع وأنت نائم ما يدور بين الزوج وزوجته ، ولو كنت ممن يلقون السمع طوعاً أو كرهاً لعرفت الكثير من الخبايا والخفايا ، فكم بداخل هذه الحجرات من أخبار وأسرار ! ! .

على أن أصحاب هذه الأسرار لا يبقون عليها كثيرا ، ولا يخشون تسربها إلى سواهم ، بل قد يحلو لبعضهم أو بعضهن أن يعالن بها لنقص

فى نفسه أو هوى عنده ؛ والمصيف يده صناع فى تجريد الكثيرين من الحياء والخجل ، فالشيخ هنا ينسى وقاره ، والمتزمت يترك تزمته ، وكل امرىء يجرؤ هنا على أشياء لم يكن يجرؤ عليها من قبل ، فإذا كان الواحد من هؤلاء مطبوعاً على قلة المبالاة ، مفطوراً على التبجح والتوقح ، انقلب هنا شيطاناً من شياطين الإنس ، قد يفوق شياطين الجن فى بعض الأحيان ! .

ومن أشواكها أيضاً ما تجده من مستلزمات المصايف المصرية المتحررة المتحللة ، من عرى وفجور ، وتمرد على الأخلاق والفضيلة ، فتستطيع إذا استقصيت وتطلبت الشر أن تجده ، وقلما يخلو مجتمع حديث كهذا من انحلال الأخلاق وتميع الطباع ... وهنا فى رأس البر المصيف الوطنى الهادىء النائى تجد أيضاً ما يسوؤك ويؤلمك ويفزعك إن كنت ممن يحافظون على أخلاقهم ومروءاتهم ؛ تجد هنا حشداً من العاريات والعرايا يمثلون سوق الرقيق أو انطلاق الإنسان على سنة الحيوان ، فهنا أجساد معروضة للبيع ، وهناك أثداء وأعراض يتاجر بها أهلوها ، وهناك فى جوانب من المصيف — دون جوانب طبعاً — تنطلق الغرائز والشهوات والحواس معربدة ، هناك الحب السريع والغرام المكشوف والصلات الحرة ، والصداقة التى تعقد فى دقائق ، وتموت فى أيام أو ساعات ، بعد أن تحقق غرضها المنشود المنكود ! .

هناك رقاعة وخلاعة ، هناك مباءة كلها دناءة ، هناك جواذب تجذب الساذج إلى هاوية الفساد ، هناك نوازع شر تحرض الضعيف على الضلال ، هناك نيران تضيء من بعيد ثم تحرق من قريب ، ولا ينجو من تحذيرها وتأثيرها إلا من رعي الله ، ولا يسلم من شرها وضيرها إلا من كان حديد القلب صليب العزيمة ثابت الأخلاق ، وما الرجولة إلا ثبات الأخلاق[1] ! ..

وعلى الرغم من هذا كله تستطيع بجانب من العناية والحرص ، والمحافظة والحذر ، أن تكون أنت ومن معك من أهلك أو رفقتك بمنأى من هذه المساخر والمنكرات . . . وتستطيع إذا طلبت أن تجد فى رأس البر الشاطىء الوسيع الفسيح الممتد أمكنة هادئة نائية ، لا تقتحمها الأبصار الآثمة ولا الشهوات العارمة ، وتستطيع أن تجد الناحية التى تستحم فيها مع مَنْ معك دون أن تكونوا نهباً مقسما للنظرات الشرهة والعيون الجائعة . فاختر لنفسك مايحلو ! . . .

* * *

والأخوة والمساواة والديمقراطية تتجلى على الشاطىء وفى الماء وفى سائر أنحاء المصيف بأجلى معانيها ، فهناك الفتيان والشيوخ والصغار

---

(١) يرحم الله الرافعى إذ يقول : « لايهزم الشاطىء إلا ذلك (الجامع الأزهر) لو لم يكن قد مسخ ، فصرخة واحدة من قلب الأزهر القديم تجعل هدير البحر كأنه تسبيح ، وترد الأمواج نقية بيضاء ، كأنها عمائم العلماء ، وتأتى إلى البحر بأعمدة الأزهر للفصل بين الرجال والنساء » ! .

والكبار والأغنياء والفقراء ، والعاملون والعاطلون ، والخادمون والمخدومون ، الكل تسودهم مظاهر السهولة واليسر ، والتجرد من أثقال التباهى والتفاخر بالأحساب أو الأنساب أو الأعراض أو الرتب ، فلا سيد ومسود ، ولا مطعوم ومحروم ، ولا حاكم ومحكوم ، بل الجميع تتساوى حظوظهم من المتعة بما خلق الله من هواء وضياء ورياضة وهدوء ، والجميع يمشون بلا خدم أو حشم ، والجميع يتساوون فى قلة الاحتفال بما تعارفوا عليه فى المدن أو داخل البيوت والقصور ونواحى الحياة الاجتماعية المعقدة من العناية بالمميزات والفوارق ، والجميع يتلاقون ويختلطون ويتعارفون ويتسامرون ويتسابقون بلا غضاضة أو إنكار . وقد يجمع الشاطىء أو الماء بين خادم حقير وموظف خطير دون أن تستطيع وقت رؤيتهما أن تميز بينهما ، حتى لقد تجاوزت هذه المساواة والديمقراطية والرفقة حدودها ، فهؤلاء نسوة يختلطن برجال ، وهؤلاء شواب يمتزجن بشبان ، وهذا هو القطيع الذى انطلق على وجهه فاختلط ظباؤه بكواسره ، واشتبكت كواعبه بغضافره ، وشوه جمال هذه الجنة الفيحاء بتلك المآثم النكراء !..

* * *

ولم لا يتساوى الناس هنا ، وتعلوهم سمات عامة جامعة ، وتسودهم صبغة شاملة كاملة ، والإنسان مفطور بطبيعته وجبلته على محاولة التجرد مما حملته الحياة المدنية والمعيشة الاجتماعية من أثقال وأوزار تتمثل

فى المظاهر والأعراض والجاه والمال والألقاب والرتب ، فتراه إذا خلا إلى نفسه ، أو أمن الرقيب وجموع الجماهير ضاق ذرعا بهذه التفاهات ، وألقاها بعيداً عنه ، وعاش كما كان آباؤه وأجداده ، سهل الحياة قليل التكاليف ، ليريح أعصابه ويستجم نشاطه ، ويستعيد هدوءه ، وينقطع ولو إلى حين عن صخب المجتمع ولجب الحياة .

ولم لا يتساوى الناس هنا ، وليس ثمَّ شيء يدعى فيه أحد ملكية أو إحرازا ، فليس هنا ضيعة أو مزرعة أو متجر أو مصنع ، وليس هنا حمى يحمى ، أو حد محدود أوحاجز محجوز ، وإنما يوجد متاع إلهى خالد ، منحه الله للخاص والعام ، ولم يجعل لغيره إلى امتلاكه من سبيل ، فمن الذى يمنع أحدا من التمتع بالضياء المنبعث من شمس النهار ؟ . ومن الذى يستطيع أن يمنع أحدا من نور القمر البازغ فى أطواء الليل ؟ ومن الذى يستطيع أن يحيط بحباله أو أوصاله هذا البحر المبسوط ليتبجح قائلا: هذا لى وليس لغيرى؟. ومن الذى يستطيع أن يمنع هـذا الهواء النقى المتواصل الهبوب عن صدور الناس ورئاتهم ؟ .

لئن استطاع الإنسان الخداع المختـار ، الذى خُلق من حرص وطمع ، أن يقيم فى مدنه ومجتمعاته المعقدة حواجز الحيازة والملكية ، فيدعى لنفسه أرضا أو قصرا أو بيتا أو ضيعة أو حمى ، إنه لأعجز عن أن يدعى مثل هـذا أو بعضه فيما خلق الله من نعم عامة وآلاء عالمية ، وإن مجالى الطبيعة ومسارحها ستظل إلى الأبد متاعا مشاعا لكل متمتع

وحمى مباحا لكل راغب ! . . ومن الذى يستطيع أن يتحكم فى الماء والهواء ، والنور والضياء ، وعبق الأزهار ونشر الرياحين ، وجلال الليل وسحر القمر ، وجمال النهار وروعة الضحى ، وفتنة الرياض والغياض ؟ !

اسمعوا إن شئتم صوت الشاعر :

لقد تذكرت تلك القصيدة الطويلة الرائعة التى نسج بردتها الشاعر إيليا أبو ماضى وجعلها محاورة بين (الشاعر والسلطان الجائر) إذ يقول فيما قال :

أمر السلطان بالشاعر يوما فأتاه

قال : صف جاهى ، ففى وصفك لى للشعر جاه

وإذا بالشاعر الحر المنطلق يسخر من تجبر ذلك السلطان الجهول ، وينبئه أن الشاعر مع فقره يتمتع بما لا يتمتع به سلطان ، من رَوْح وريحان ، ونسيم وضياء ، ويذكره بأن الكون قد برأه ربه لعباده أجمعين ، وأنه إن ملك شيئاً فقد عجز عن امتلاك أشياء ، وأن أسمى ما فى الكون من آيات ، وأبدع ما فيه من مفاتن ، إنما هو ملك مشاع لكل إنسان :

قال : إنى لا أرى الأمر كما أنت تراه

إن ملكى قد طوى ملكك عنى ومحاه

***

والروض ؟إن الروضة صنعة شاعر سمح طروب رائق جزل
وشىّ حواشيه وزيّن أرضه بروائع الألوان والظل
لفراشة تحيا له ، ولنحلة تحيا به ، ولشاعر مثلى !
ولبلبل غَرِدٍ يساجل بلبلا غرداً ، وللنسمات والطل
ولديمة تزرى عليه دموعها كيما تقيه عوامل المحل

***

والبحر قد ظفرت يداك بدره وحصاه، لكن هل ملكت هديره؟
أمرجت أنت مياهه؟ أصبغت أنت رماله ؟ أجبلت أنت صخوره ؟
هو للدجى يلقى عليه خشوعه والصبح يسكب وهو يضحك نوره
هو للرياح تهزه وتثيره والشهب تسمع فى الظلام زئيره
للطير هائمة به مفتونة لا للذين يروّعون طيوره
للشاعر المفتون يخلق لاهيا من موجة حورا ، ويعشق حوره
ولمن يشاهد فيه رمز كيانه ولمن يجيد لعينه تصويره
يا من يصيد الدر من أعماقه أخذت يداك من الجليل حقيره
لا تدعيه فليس يُملَكُ ، إنه كالروض ، جهدك أن تشم عبيره

***

ومررتُ بالجبل الأشم فما زوى عنى محاسنه ولستُ أميرا
ومررتَ أنت فما رأيت صخوره ضحكت، ولا رقصت لديك حبورا

ولقد نقلت لنملة ما تدعى فتعجبت مما حكيت كثيرا
قالت: صديقك ما يكون؟ أقشعما؟ أم أرقما ؟ أم ضيغما هيصورا ؟
أيحوك مثل العنكبوت بيوته حوكا ؟ ويبنى كالنسور وكورا ؟
هل يملأ الأغوار تبراً كالضحى ويرد كالغيث المواتَ نضيرا ؟
أيلف كالليل الأباطح والربى والمنزل المعمور ، والمهجورا ؟
فأجبتها : كلا ، فقالت : سمه فى غير خوف : (كائناً مغرورا) !

والقصيدة كلها من هذا الطراز الإنسانى العالى ، وإن شئت أن تمتع بها قلبك وعقلك فطالعها فى ديوان (الجداول) لأبى ماضى !.

فيابنى آدم ! كفكفوا من غلوائكم ، واقتصدوا فى غروركم ، ولا تقولوا : ملكنا !. فما ملكتم إلا الحقير ؛ ولله ملك السموات والأرض؛ ولله الأمر من قبل ومن بعد ؛ وإليه يرجع الأمر كله ؛ وهو على كل شىء قدير !!.

* * *

والقيود هنا ممنوعة مرفوعة ، فأنت كما تهوى وتشاء ، وأنت منطلق انطلاق هذا الهواء ، وأنت مندفع إلى رغباتك اندفاع هذا الماء ، وأنت حر فى نفسك بأوسع حدود الحرية وفى أفسح مجاليها : أنت حر فى طعامك وشرابك وزينتك وثيابك ونزهتك ؛ أنت حر فى نومك ، تنام على سرير أو أريكة أو مقعد أو فوق الرمال ؛ وأنت حر

فى رياضتك ، تسير على قدميك حافياً أو بحذاء أو على عربة ؛ وأنت حر فى استحمامك ، تستحم صباحاً أو ظهراً أو أصيلا ، منفرداً أو مجتمعاً دانياً أو بعيداً ، قليلا أو طويلا ، هادئاً أو صاخباً ؛ وأنت حر فى ثيابك تسير بالحلة الرسمية أو المنامة (البيجامة) أو القميص والسروال ، أو السروال فقط ، أو التبان (لباس البحر) أو الجلباب البلدى ، أو غير ذلك مما تشاء ؛ وأنت حر فى طعامك ، تأكل طيبا أو رديئاً ، كثيراً أو قليلا ، على انفراد أو أمام الناس ؛ وهكذا فى كل شأن من الشئون ، أو أمر من الأمور ! . .

ومن لطائف الشاطىء أن شهيتك تتفتح عنده حتى تصبح نهما ، فأنت هنا تأكل فى اليوم عدة مرات ، وتأكل وافر الكميات ، دون أن تتعب أو تمرض ، وهأنذا آتى إلى الشاطىء فى أعقاب صوم امتد شهرا ، و بعد أن تعودت معدتى على الجوع والامتناع الطويل عن الطعام ومع هذا آكل وآكل ، ثم أنزل البحر وأعود للأكل ، وأستنشق الهواء وأعود للأكل ، وكأن الرياضة والهواء النقى المنعش والحركة المستمرة وراحة البال وسعادة النفس تجعل المعدة صالحة لاستقبال المزيد من الطعام دون مرض أو ألم ! . .

(٥)

لماذا خلق الله البحر ؟

ونزلت إلى البحر الطويل العريض ، المنبسط الممتد ، الذى لا تدرك العين مداه ، ولا تحيط بغايته ومنتهاه ، وأخذت مع رفقتى أتقدم إلى داخله قليلا قليلا ، وكلما خطونا خطوة أو قطعنا مرحلة خُيل إلينا أننا فتحنا حصناً أو قهرنا مدينة أو حطمنا جيشاً ، ونحن فرحون مسرورون مخمورون بنشوة السباحة والاستحمام ، وبدأ الموج يعلو ويقسو . ويشتد ويعتد ، وإذا نحن لا نخلص من موجة قهارة إلا لنستقبل موجة جبارة ، وأخذت كغيرى أغالب الموج ويغالبنى فيغلبنى ؛ وأحياناً أحاول أن أضحك على نفسى وأُرضى غرورى ، فأرتد إلى الوراء قليلا حيث يهدأ الموج ، فأقاوم الموجة الضعيفة الخفيفة فأقدر عليها وأهزأ بها ، ويخيل إلىّ أننى اصطدت الذئب من ذيله ، وغلبت البحر على أمره ، ونجوت من الموج وخطره ، ثم تفجأنى عقب ذلك موجة قاسية فتردعنى وتطوينى ، وتلطمنى فتؤدبنى وتؤذينى ، وتوقظنى من غفلة أحلامى وظنونى[1] .

---

(١) من حديث الرافعى عن البحر : « والأطفال يلعبون ويصرخون ويضجون ، كأنما اتسعت لهم الحياة والدنيا ، وخيل إلى أنهم أفلقوا البحر كما يفلقون الدار ، =

وهكذا شأن الطبيعة دائماً ، تلين أحياناً حتى ليستخف بها الإنسان ثم تعنف حتى تأتى بقوتها على كل جبروت وطغيان ! . بل هكذا الإنسان الهزيل الكليل الضئيل ، يهاب القوى فيفر من وجهه ، ويحذر لقاءه ، فإذا لقى من هو أضعف منه أرضى غريزة السيطرة والاستعلاء فى نفسه بالتحرش به والاعتداء عليه ، وتعساً لذلك المخلوق الضعيف الذى يقف وقفة الذليل المهين أمام الفاتك الجسور ، ثم يقف وقفة الغاشم الظالم أمام الضعيف المسكين : « إن الإنسان لكفور » ، « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ، وكان الإنسان كفورا » ، « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر كان يئوسا » ، « ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون » ، « لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ، وإن مسه الشر فيؤوس قنوط » ، « ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن : هذا لى ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى ، فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ، ولنذيقنهم من عذاب غليظ ، وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » ، « وجاوزنا ببنى

= فصاح بهم : ويحكم يا أسماك القراب ! . . . ورأيت طفلا منهم قد جاء فوكز البحر برجله ! . . فضحك وقال : انظروا يا بنى آدم ! . أعلى الله أن يعبأ بالمغرور منكم إذا كفر به ؟ أعلى أن أعبأ بهذا الطفل كيلا يقول إنه ركلنى برجله » ؟ .

إسرائيل البحر ، فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدوا ، حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » .

* * *

وطال لبثى بين أمواج البحر حتى كدت أشبع منه أو أزهد فيه ، وحتى كلت أعضائى وفترت همتى ، وهتف بى هاتف من هواتف الفلسفة والتفكير ، أو وسوس لى أحد الشياطين — لست أدرى — فأخذت أسائل نفسى وقد تسرب بعض الماء الملح إلى حلقى وأفسد علىَّ رياضتى: لِمَ خلق الله هذا البحر الملح بهذه السعة المتسعة ؟ ولم جعل ماءه ملحاً ولم يجعله عذباً فراتاً ؟ . . . وكان هذا التساؤل فاتحة لسلسلة من التأمل والنظر .

قلت لنفسى أولا : وما شأنكِ أنت ، وما مبلغ حكمتك وبصيرتك حتى تعترضي أو تستجوبى ؟ .

لقد خلق الكونَ خالقهُ ، وهو العليم الحكيم ، فما يتصف إلا بكل كمال وجمال ، ولا يصدر عنه إلا ما هو حق وخير . ثم تعالىْ أيتها النفس الأمارة بالسوء ، الطُّلَعَة إلى المجهول ، التى لا تقنع باليسير ، بل تتعلق بأهداب كل ممنوع . . ألم يخلق الله المبدع الحكيم ما هو عذب وملح ؟ . . ألم يقل : « وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات ،

وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجراً محجورا » ؟ .

فلعله — سبحانه وتعالى — قد أراد — وهو الأعلم بمراده — أن نعرف قيمة العذب الحلو الجميل حينما نقارنه بالماء الملح الممجوج ، و بضدها تتميز الأشياء كما يقولون ؛ ولولا وجود الشر ما عُرف الخير ، فالأمور نسبية ، والمقارنة هى التى تظهر الفاضل والمفضول .

ثم تعالى أيتها النفس مرة ثانية . أما تستطيعين أن تنظرى فتبصرى للبحر فوائد ومنافع كل منها عظيم جليل ؟ .

لقد خلق الله الحكيم العليم هذا البحر ليكون مسبحاً للأسماك ، تنمو فيه حتى تصير غذاء شهياً ولحماً طرياً ، نأكله فنلتذ منه ونصح به ؛ وكذلك خلق الله هذا البحر ليجعله مستقراً لتلك اللآلىء والخرائد التى نبحث عنها فنجدها فنزين بها صدور كواعبنا ومعاصمهن ؛ وكم فى أعماق البحر من هذه الفرائد من حلى تُنفَق فى سبيلها الأموال الطائلة والجهود الجبارة .

وكذلك خلق الله البحر الواسع ليكون طريقاً سهلا ميسوراً للفلك والسفائن ، تسير فيه بهوادة ولين ، فتحمل أثقالنا وأحمالنا التى لا نستطيع حملها إلا بشق الأنفس ، وتسرى بهذه الأحمال المرهقة إلى بلاد بعيدة وجهات نائية لا نبلغها بها إلا إذا أنفقنا الليالى والأيام ، وأسلنا العرق أو الدمع أو الدم . استمعى أيتها النفس إلى الحق إذ يقول

عز من قائل : « وما يستوى البحران : هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحماً طرياً ، وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » واستمعى إليه يقول : « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ، إن يشأ يُسكن الريح ، فيظللن رواكد على ظهره ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ، أو يوبقهن بما كسبوا ويعفو عن كثير » .

وكذلك خلق الله هذا البحر الوسيع ، وملأه بذلك الماء الكثير ليكون سبباً فى المطر الذى يسوقه إلى الأرض الجرز فيخرج به زرعا ، تأكل منه الأنفس والأنعام ، ويسلكه فى الأنهار ليكون بهجة وشرابا ، وسبباً للحياة والنماء ، ووسيلة للخير والبركة : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآياتٍ لقوم يعقلون » .

فالشمس تلقى بأشعتها القوية الحارة على سطح الماء فى البحار ، فتجفف الكثير منه ، ويرتفع بخاراً إلى طبقات الجو العليا ، ثم يتجمع ويتكاثف ، حتى يصير سحابا وركاما ، ثم تصرّفه الرياح ذات اليمين وذات الشمال ، حتى يأذن الله له بأن يتحول إلى قطرات من السيل

تهمى على وجه الأرض ، فتبعث الهامد وتحرك الراكد ، وتنفخ الحياة فى الجامد : « وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهورا ، لنحيي به بلدة ميتاً ، ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيراً » ، « ألم تر أن الله يزجى سحاباً ، ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله ركاماً ، فترى الودق يخرج من خلاله ، وينزّل من السماء من جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » . « وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ، وينشر رحمته ، وهو الولى الحميد » .

وكذلك خلق الله البحر ليكون امتحاناً واختبارا ، وسبب يقين وإيمان ، واتعاظ وارتداع ، فنحن مضطرون إلى ركوبه حتماً ، ولو شاء ربك لاستدرجنا من حيث لا نعلم حتى نركبه ، ثم يغرقنا فيه جزاء غرورنا وطغياننا ؛ ولو شاء لزاد فى « المد » قليلاً فإذا نحن طعام لأسماكه وحيتانه ؛ ولو شاء لأغرقنا ونحن آمنون فوق ظهره ، لأننا مهما أوتينا من دقة الاختراع والابتداع والإحكام فى سفين الماء لا نأمن الغرق ، فللبحر أسراره وأخطاره ، وبدواته ونزواته ، وسلطانه وطغيانه ؛ وهنا عبرة وعظة ، هنا يدرك الإنسان ضعفه أمام جبروت الخالق ، وذلته أمام عزته وعظمته ، فيؤمن ويوقن : « وإذا غشيهم موج

كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ، وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » ! ! .

وكذلك خلق الله العلى الكبير هذا البحر وأمثاله ليكون ملطفاً لحرارة الجو فى الصيف ، فتهب منه النسمات الساحرة الأخاذة ، التى تصافح الوجوه وتنعش الصدور ، وتهدىء الأعصاب وتعيد النشاط ؛ وعند ما تتدبر تلك الظاهرة الجغرافية التى تتكرر كل يوم ، والتى يسمونها « نسيم البر والبحر » ، تدرك مبلغ مايؤديه البحر لمجاوريه من يد مذكورة مشكورة ! .

وكذلك خلق الله هذا البحر وجعله ملحاً للنفع لا للضر ، وللخير لا للشر ، فمن هذا الماء الملح يأخذ الناس تلك المادة الأساسية اللازمة للطعام ولغيره من الشئون : مادة « الملح » التى لا يستغنى عنها فرد من الناس ، والتى أراد الله لحكمته وعلمه أن يجعلها من الكثرة والوفرة بحيث لا تستعصى على طالب ، فبثها بكثرة فى هذه المياه المالحة لتستخرج منها بوساطة « الملاحات » أو غيرها من الوسائط ! .

وهذا الملح نفسه يعطى الماء كثافة لازمة لسهولة الملاحة والسير بالسفن فى البحار ، وبذلك تستطيع السفن الهائلة الهيا كل الثقيلة الأحمال أن تسير فوق الماء الملح ، دون أن تخشى غرقا أو فرقا أو صعوبة ؛ وهناك كثير من « الجوارى المنشئات فى البحر كالأعلام » لا يتيسر

لها أداء مهماتها فى الأنهار العذبة كما يتيسر لها فى البحار الملحة .

وهذا الملح نفسه مفيد للأجسام التى تستحم فيه ، فيه من المواد الطبيعية الطبية ما يقضى على جانب من علل الأجساد ، ويبعث فيها الفتوة والشباب ! وكم من ملايين نعموا بالاستحمام فى هذا الماء فوجدوا فيه الدواء والشفاء ! .

وكم فى هذا البحر من حيوانات مائية كثيرة الفوائد مختلفة المنافع لا تعيش إلا فى الماء الملح ، والإنسان المقتدر يتذرع بحيلته وفنه فيصيدها ، ويتخذ منها الإدام والدواء والغذاء والزينة وغير ذلك ، وإن عجائب البحر فى هذه الناحية لأعظم وأجل من عجائب اليابسة والهواء ! .

والبحار فوق هذا فواصل إلهية خالدة بين هذه الأمم المتباينة ، والدول المزدحمة بالسكان والأحياء ، وحسبك أن تتصور بعين خيالك هذه الكرة الأرضية وقد تراصت فوق سطحها القرى والمدن والدول والأمم ، بلا فواصل أو حواجز طبيعية كهذه البحار أو الجبال أو الصحراء ، لتدرك أن الله قد أنعم على الناس فأسبغ عليهم النعمة بهذه البحار التى لطفت من حدة هذا الازدحام المرهق العصيب ! .

ولقد قرأت فى مجلة الهلال الصادرة فى أكتوبر سنة ١٩٠٨ م ما ملخصه أن السير وليم كروكس رئيس مجمع تقدم العلم الإنجليزى وضع منذ سنين إحصاء يبين به أن الأرض لا تبلغ سنة ١٩٢٨ م حتى تقل

المواد الغذائية البرية ، لكثرة التناسل بين البشر ؛ ولَمَّا خشى العلماء أن يقع العالم فى مجاعة عامة ، أخذوا ينظرون فى الوسائل الواقية من ذلك ، وكتب أحدهم يقول إن فى قاع البحار وعلى شواطئها وسواحلها أصنافاً من النباتات البحرية لا تقل القيمة الغذائية فيها عما فى أفضل النباتات البرية ، وذكر أسماء عدة أصناف منها تكثر فى المحيط الإطلانطيقى عند شواطئه الغربية ، وقال : « إن فى سواحل مقاطعة (سرقوسة) فقط من النباتات البحرية ما لو أُحسن استخراجُه ومعالجته لكفى لتغذية سكان أوربا كلها طول السنة ، ولكنها متروكة للطبيعة ، تنمو وتذبل وتنحل ، ولا يلتفت إليها أحد » .

فكيف لو أحصينا ما فى البحار الأخرى ، ذاكرين أن مساحة هذه البحار أكثر من ضعفى مساحة اليابس ؟ .

وليس الاغتذاء بالأعشاب البحرية بدعا عند الناس ، فبعض الأمم تغتذى بها كما فى اليابان والصين وجزائر المحيط ، وقد مرّت عليهم دهور ولا غذاء لهم سواها ، وفى النباتات البحرية ما فى البرية من مواد الغذاء اللازمة للأجساد ، فلم لا يلتفت العالم إليها للانتفاع بها عند الحاجة ، بدل أن يذهب منها سدى كل عام عدةُ ملايين من الأطنان على شواطىء أمريكا فقط ؟ ! .

وهكذا وضع ربك جليل النعم وعظيم الآلاء فى سائر الأرجاء والأنحاء ، ولـكن أكثر الناس لا يعقلون ! .

والبحر أخيراً منظر جميـل وصورة رائعة يقف أمامها الإنسان مسحوراً مبهورا ، دهشاً مغمورا بفتنة هذا الجمال . فالماء الذى يعكس زرقة السماء على صفحته فيبدو أزرق اللون ، وهذه القبة العالية التى تزين سماء هذا البحر ، وهذا الهواء الرقيق اللطيف ، وهذا الهدوء الخالص من لغب الحياة وضوضاء الأحياء . . . كل هذه نعم لا يؤدى الإنسان حق شكرها لخالقها ولو أفنى عمره فى الصلاة والتكبير ! .

وإن شئتم فاسمعوا ما يقوله الإمام ابن القيم فى كتابه « زاد المعاد » عن ملوحة البحر : « وقد جعله الله سبحانه ملحاً أجاجا مراً زعافا لتمام مصالح من هو على وجه الأرض من الآدميين والبهائم ، فإنه دائم راكد كثير الحيوان ، وهو يموت فيه كثيراً ولا يُقبر ، فلو كان حلوا لأنتن من إقامته وموت حيوانه فيه وأجاف ، وكان الهواء المحيط بالعالم يكتسب منه ذلك وينتن ويجيف فيفسد العالم ، فاقتضت حكمة الرب سبحانه وتعالى أن جعله كالملاَّحة التى لو ألقى فيها جيف العالم كلها وأنتانه وأمواته لم تغيره شيئا ، ولا يتغير على مكثه من حين خلق ، وإلى أن يطوى الله العالم ، فهذا هو السبب الغائى الموجب لملوحته ، وأما الفاعلى فكون أرضه سبخة مالحة ؛ وبعد فالاغتسال به نافع من

آفات عديدة فى ظاهر الجلد ، وشر به مضر بداخله وخارجه ، فإنه يطلق البطن ويهزل ، ويحدث حكة وجربا ونفخاً وعطشا ، ومن اضطر إلى شربه فله طرق من العلاج يدفع به مضرته ، منها أن يُجعل فى قدر ويجعل فوق القدر قصبات وعليها صوف جديد منفوش ، ويوقد تحت القدر حتى يرتفع بخارها إلى الصوف ، فإذا كثر عصره ، ولا يزال يفعل ذلك حتى يجتمع له ما يريد ، فيحصل فى الصوف من البخار ما عذب ويبقى فى القدر الزعاق ، ومنها أن يحفر على شاطئه حفرة واسعة يرشح ماؤه إليها ، ثم إلى جانبها قريباً منها أخرى ترشح هى إليها ، ثم ثالثة إلى أن يعذب الماء » اهـ .

سبحانك أيها الإله العظيم ، سبحانك أيها الحكيم العليم ، سبحانك أيها المنعم الوهاب ، سبحانك أيها المبدع الخلاق ؛ تعالت كلمتك ، وجلت قدرتك ، وبهرت آلاؤك ، وفاضت نعماؤك . . . آمنت بك ثم آمنت ثم آمنت ! . . وخشعت لك النفوس ، وخضعت الجباه ، وسبح باسمك كل شىء فى الوجود : « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفورا » ! .

(٦)

لواذع الحرمان

وفى المصيف يحس كل عزب ممن تلذعهم لواذع الحرمان ، ولم يذوقوا نعيم الزوجية ، ولم ينعموا بجمال الأسرة ، ولم ينهضوا بتبعات الأبوة ، يحس بعميق الأسى والألم ، فهو كالتائه الشريد ، أو الغريب الطريد ، الذى يمر على المغانى تعمرها الأمانى ، ويشهد الأسر وقد حاطتها يد الله بأفواف من الغبطة والسعادة ، ويرى البيوت تنبعث منها الأضواء والأنوار ، وتزدهر فيها الرياحين والأزهار ، وتتردد فيها نغمات المثالث والمثانى ، وتمتلئ جذلا وحبوراً بأصوات الأطفال والأبناء ، فيألم ويندم ، ويشعر بعظم ماهو محروم منه من الخير والفضل ، ويخيل إليه كأنما قد قُسِّمت الحظوظ والجدود على أهلها ، وبقى هو بلانصيب ؛ فمتى تكون له شريكة كهؤلاء ؟ ومتى يبنى عش زوجية كما بنى هؤلاء ؟ ومتى يقيم دعائم أسرة كما أقام هؤلاء ؟ ومتى يكون له أبناء كما لهؤلاء ؟ ومتى ينهض بتبعات الأبوة كما ينهض هؤلاء ؟ . . . متى أيها الغيب المحجوب ؟! .

ولا خير فى الدنيا إذا أنت لم تزر حبيباً ، ولم يطرب إليك حبيب !

إنك أيها الشريد الطريد لترى بعينيك أولئك الأطفال الذين يسرحون ويمرحون ويلعبون ويطربون ، وإنك لتسمع بأذنك أصواتهم فتحسبها أشجى الأغانى وأحلى الأمانى ، فمتى تستقر من سفرك ، ومتى تلقى عصا تسيارك ؟ ومتى تعرف لك أيها الطائر الحائر عشاً تلجأ إليه كلما دهمك المساء ؟ . . .

طريدَ الحياة ، ألا تستقر ؟ ألا تستريح ؟ ألا تهجع ؟ !

متى أيها الوحيد الفريد الذى تحتال على دنياك بكل حيلة ، فلا تنقاد لك ولا تدنو منك ، لأن قيادها هناك فى يد ذلك الرفيق الأليف ؟. متى يكتب لك القدر ما كتب لغيرك من توفيق ، فتعيش فى نفسك وفى زوجتك وفى ذريتك بدل أن تنطوى على ذاتك ، فلا السعادة أدركت ، ولا السببَ وصلت ، ولا مرتبة المجاهدين بلغت ، بل عشت كما يعيش الغصن المفرَد عن شجرته ، تُطوى بحلول أجله حياته وتبلى رفاته !.

وإنك لتقرأ أيها المعنَّى المشرد الذى لا يستقر ولا يستريح ولا يهجع قول ربك عز من قائل : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودَّةً ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . وقول رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم : « الدنيا كلها متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » .

وإذا كان « أناتول فرانس » قد قال : « المرأة هى الشىء الوحيد

الذى تركه الخالق ناقصاً ليكمله الرجل » فإنى أقول : والرجل هو الكائن الذى يظل حائراً مضطربا حتى تأتيه امرأته المنشودة فيهدأ ويستقر ، وما المرأة والرجل إلا قطبان إذا التقيا دارت عجلة الحياة ، وامتد سبب البقاء ! . . .

فمتى يكون لك زوجة أيها المكسور المشطور ، لتجد عندها المودةَ والرحمة ، ولتسكن إليها بعد تعبك ونصبك ، ولتشاركك سرّاءك وضرّاءك ، ولتنادى بها ملكة على عرش بيتك ، فتلد لك زينة حياتك من البنين والبنات ، وتحفظ غيبك ، وتصون عِرضك ، وتجمع شتاتك ، وتدبر شئونك ، وتسرك إذا نظرت ، وتطيعك إذا أمرت ، وتجبرك إذا انكسرت ، وتسترك إذا تعريت ، وتشاطرك إذا حزنت ، وتشاركك إذا فرحت ؟ . . .

متى أيها المسكين ؟. متى متى ؟ ! . . إنك لتحب وتأمل وترجو ، وإنك لتقف فى مفترق الطرق حائراً متبلبل الخاطر ، تتصفح الوجوه وتستعرض الألوان ، ولا تصل إلى بغيتك أو غرضك ، فمتى تلقى عصا التسيار ، ومتى يقر بك القرار ، وتردد مع القائل :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر !

إن الدم يغلى فى عروقك غليان الماء فى المرجل ، وإن أعصابك تتجاوب ، أو تتحارب وتتضارب ، وإن فؤادك ليخفق بذكر الأليفة ،

وينبض بالحنين إليها ، وإن لسانك ليردد الحديث عنها بتصريح أوتلميح من قريب أو من بعيد ، وإن خيالها المثير يغاديك ويراوحك ، ويطالعك فى إصباحك وإمسائك ، وليلك ونهارك ، وسكونك وحركتك ، وصمتك وحديثك ، وإن هاتفاً يهتف بك دائما وفى إلحاح : لن تهدأ إلا إذا كانت لك امرأة ، تهذب من فوضاك ، وتنظم من شذوذك ، وترتب أمورك ، وترعى كبائرك وصغائرك ، وتستر بيد الحكمة والرحمة والحنان والحب نقصك وعيبك ، وتبنى لك مملكة صغيرة ، وفردوساً محبوباً يسمونه « بيتاً » تدخله بعد طول نضال فتنسى متاعبك ، وتستجم نشاطك ، وتسترد ما فقدت من راحتك وهدوئك فى معترك كله هموم ولغوب ! . . .

إن كل عزب حساس يقف هنا ويهتف :

أيتها المغانى والأعشاش التى تنبعث منك الأنوار والأضواء متلألئة ساطعة ، وتبدو فيك الحياة قائمة عامرة باهرة ، وتتعالى فيك أصوات الآباء والأمهات ، ونغمات الأبناء والبنات ، وصراخ الأطفال ؛ وحركات الخدم ، وتتردد فى جنباتك الأهازيج والأغاريد من الكواعب الغيد ، ومن المذياع والحاكى ، ومن الأحباء والأصفياء ، وتزدان أبهاؤك وغرفاتك بالسرر المرفوعة والمخادع الوادعة ، والمقاعد الوثيرة ، والنمارق المصفوفة والزرابىّ المبثوثة والموائد المعمورة والبسط الممدودة والزهريات الحافلة بنواضر الرياحين وأطايب الأزهار ! . .

أيتها المغانى التى تسرح فيها الآمال ، وتتهادى فى آفاقها طيور الأمانى ... خفّفى قليلا من أصواتك واستمعى إلى ذلك الصوت الحبيس الحزين ، واذكرى أن هناك من يمر بك فيشهد مافيك من جمال وفتنة ودعة ، فتلذعه نيران الحرمان ، ويستبد به الشوق والحنان ، ويتحسر على مافات من شبابه، وماطوى من كتابه ، ومابلى من إهابه ، وماضاع من رغابه ؛ ويسائل نفسه فى حرقة ولوعة : متى يكون لك أيها المحروم المأزوم ما لهؤلاء السعداء من غبطة وهناء ؛ ونعيم مقيم ، ومأوى كريم ، وإلف رحيم ! ؟ . . .

وأين أنتم يا أحبائى ؟! . . أين أنت يازوجتى المنتظرة ويا أولادى المنشودين ؟ . . أعلى بُعد خطوات منى أم على بعد أميال وأميال . . . أأنت الآن أيتها الزوجة فى دنيا الواقع وعالم الوجود ، أم لاتزالين ضميراً مستتراً فى حجب الغيب وعالم المستور ؟ . . .

ليت لى سبيلا إلى هتك ذلك الحجاب ، وقراءة ماسُطر فى الكتاب . إذن لاطفأت نار شوقى ، واخترت لنفسى ، وأرسيت سفينتى ؛ ولكن كيف السبيل إلى ماليس إليه من سبيل ؟! . . . .

* * *

وى ! . . . هذا مسجد رأس البر الشامخ السامق . هذا هو البناء الذى أُسس على التقوى ؛ ليدعو الناس إلى ربهم ؛ وليذكرهم

بواجبهم الدينى وسط هذا المعمعان ، وخلال تلك الضجة العالية العاتية .
هذه هى الدار الطاهرة المطهرة التى استقرت هنا فى هذا المكان لتكون نقطة ارتكاز ومبدأ انتشار للدور والمنازل . . . وأكرم بمحلة ينهض بنيانها أول ما ينهض على دعائم مسجد كريم . . . هذا هو المسجد الذى يزدان بمئذنته العالية وفنائه الرحيب وفراشه الوثير وبنائه الشرقى البديع ، وحماه الواسع المترامى . . .

لقد نهكنا المسير وأرهقنا التجوال ، وقد آذننا وقت العصر ، وكادت فريضة الظهر تذهب وتتفلت ، فلنسارع بالدخول إلى المسجد ، ولنتوضأ على عجل لندرك الفريضة ، ثم لنجلس منعمين النظر فى أبهاء المسجد وجدرانه ومنبره ومحرابه وزينته ونقوشه ، ولنسترح داخله معتكفين حتى تجب صلاة العصر فنؤديها حامدين لله شاكرين .

ما أعجب مفارقات الحياة . . . هنا فى داخل المسجد قوم يتحنثون ويتعبدون ، ألمح فيهم الكثير من الخدم والبوابين والطباخين ، وبجوار المسجد ، أو على بُعد خطوات منه ، يوجد قوم آخرون يلعبون ويلهون ، وبعضهم يفسقون ، وبأجسادهم يتاجرون أو يفاخرون ، فكيف اجتمع فى واد واحد البرّ والفاجر ، والصالح والطالح ، والخَيِّر والشرير ، والعابد والفاسد ؟ . . . تلك حكمة اختص بأمرها وعلمها الحكيم الخبير ! . . .

وفى المسجد جلست إلى جوار رجل يلوح لى أنه كان يحمل نقوداً كثيرة فى حافظته ، وتلاصقَ جسمه وجسمى دون قصد منى ، فنظر إلىَّ الرجلُ بريبة وشك ، إذ حسبنى من صعاليك الرعيـة أو مهرة السارقين . . . وكنت ألبس (المنامة) فليس هناك مايدل على عملى أو طريقتى فى الحياة ؛ وجعل الرجل من حين لآخر يتحسس جيبه الذى وضع فيه محفظته ، والذى كان فى جهتى ، فى خفية وحذر ، ليتأكد أننى لم أسرق نقوده ، وجعل يسارقنى النظر متوجساً شراً من ناحيتى ، وجعلت أنا كلما نظر نحوى نظرته الشاكة الفاحصة أغالب ابتسامى ، فيبدو على وجهى على الرغم منى ، فيزداد الرجل حيرة وارتباكا ، أو شكا وارتياباً ؛ ولـكن ماذا أفعل له ؟ وكيف أدخل الطمأنينة على نفسه ؟ . . وأخيراً تشجعت فقلت له وأنا أبتسم : أتخاف منى ياسيدى ؟ . . فازداد ارتباك الرجل ، ولـكنه حاول التظاهر بالاطمئنان وقال : لا ، ولم أخاف منك ؟ . قلت : يلوح لى أنك تتوهم أننى لص سأسرق نقودك التى فى جيبك هذا ! (وأشرت إلى جيبه) ، فدهش الرجل وفزع وقال : ومن أنبأك أننى أحمل نقوداً ؟ . .

ورأيت الأمر سيزداد حرجاً وضيقاً فقلت له : كل ماأريده منك ياسيدى هو أن تطمئن ، وأن تعلم أننى بفضل الله فى غنى عن كل ما فى الدنيا ، وأن لى من متاعى وثقافتى ورسالتى مايحول بينى و بين السرقة

أو العدوان على أى إنسان كائناً من كان ! . فسكت الرجل ولم يجب ، ولما وقفنا لصلاة الجماعة — والرجل إلى جانبى يحاذرنى ويتجنبنى ، وبدأت أنوى بلهجة أزهرية فصيحة — أخذ الرجل فيما يبدو لى يصحح فكرته عنى ، ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، فى صورة من يطرد عن ذهنه فكرة خبيثة خاطئة لا يليق به أن يفكر فيها . . . ولما سمعنى الرجل فى الصلاة أقرأ الفاتحة وشيئاً من القرآن الكريم بترتيل وتجويد ازداد اطمئناناً ؛ وصافحنى عقب الصلاة بحرارة ، وسألنى من أكون ، فعرفته بشخصى وعملى ، وظهر أنه يقرأ لى ، فاحتفل بى وبالغ فى اعتذاره إلى ، ولكنى سبحت فى آفاق من التفكير . . .

هكذا يجنى الشر على الخير ، وهكذا يكون سوء الظن سبباً فى ارتكاب الإثم ، وهكذا استطاع المفسدون فى الأرض المعتدون على الناس أن يجعلوا كل إنسان سيء الظن بمن يلقاه أو يصادفه لأول مرة ، ورحم الله العامة حين قالت : إن ابن الحرام لم يترك لابن الحلال شيئاً ؛ وكم فى السجن من مظلومين ! . . .

* * *

وخرجت من المسجد وأنا أتلفت يميناً وشمالا ، وأرمى ببصرى هنا وهناك ، فلا أكاد أرى شيئاً مبنياً فى رأس البر ؛ لا أرى عمارة ولا قصراً ولا فندقاً ثابتاً ، فإن رأس البر إلى اليوم تستخدم الأعشاش من القصب

والخشب لمدة المصيف فقط ، ثم يقوض كل شيء في آخر المصيف ، وتظل رأس البر طيلة العام بقعة رملية خالية ، لا مأوى فيها ولا مسكن بها ، إلا بضعة أكواخ في ناحية لمن تربطهم ظروفهم وحياتهم برأس البر على الدوام ؛ ولكنه يغلب على ظني أنه لن تمر سنوات معدودات حتى تصبح رأس البر مدينة عامرة ، فيها قصور ومنازل ، وفنادق وملاعب ، وشوارع وميادين ، وسيكون هذا المسجد الأنيق الجليل واسطة عقد هذه المدينة الجديدة ؛ وأخشى ما أخشاه أن تمتد يد الصناعة والمدنية الزائفة إلى شاطىء رأس البر الطبيعي الساحر ، فتحيله إلى مدينة معقدة و بلدة مشتبكة الأمور والمصالح ، فيفقد بذلك أكبر مزاياه وأفضل سجاياه ، وهو تمثيله للطبيعة الخالصة ، والجمال الإلهي الخالد ! . .

فيا أيها المشرفون على رأس البر في مستقبل الأيام ، احذروا أن تمتد أيديكم بالتشويه والتبديل إلى هذا الجمال الأصيل ، واحذروا بوجه خاص أن تبدلوا شيئاً من شاطىء رأس البر المنفسح السهل الجميل ، فاجعلوا تعميركم بمقدار ، وزنوا تغييركم بميزان ! . . .

* * *

وفي الأصيل قال الرفاق لنا : هيا بنا إلى « اللسان » ! . . .

إلى متعة المتع في رأس البر . . .

و « اللسان » برزخ ممتد داخل الماء ، يفصل بين النيل المبارك

والبحر الأبيض ، وهو أشبه بخرطوم مبسوط ممدود ، أو رأس زاوية ينتهى عندها اليابس ، ويبدأ بعدها التقاء الماء العذب القرات بالماء الملح الأجاج . . .

وسعينا طويلا حتى قطعنا طريقاً مرصوفاً استغرق وقتاً كبيراً واستنفد مجهوداً مضنياً ، ولكن : لا بد دون الشهد من إبر النحل ، ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر ، وها نحن أولاء نبلغ « اللسان » بعد طول المسير ! ! . .

تبارك الله أحسن الخالقين ! . هذا هو السحر ، وهذا هو الشعر ، وهذا هو الخيال والجمال والجلال . . هنا الهواء الجبار الذى يهب عاصفاً ولكنه مرغوب ومحبوب ، وهنا الجلسة الخالية الهادئة التى تبعث العزم وتعيد الشباب وتبدأ الحياة من جديد ، وإلى هنا تهرع الجموع كل أصيل ، ليختموا يومهم الذاهب بأفضل ما يشهدون وأسمى ما يتمتعون ؛ وهنا تبلغ نهاية اليابس فترى الأمواج الشديدة التى لا تطاق ، ولا يشق ثورتها سابح أو سفين ؛ ولذلك يضعون أمامها بجوار اليابسة صخوراً هائلة لتتكسر عليها حدة هذه الأمواج ؛ وتستبدل هذه الصخور من حين لحين ، لأن شدة الموج تفتتها وتأتى عليها بسرعة غريبة ؛ وهكذا يريك الماء السائل الرقيق كيف يقوى ويشتد ؛ حتى يرغم العنيد ويحطم الجلمود ؛ فلا تحتقر ضعيفاً ، ولا تستهن بقليل ، فرب قليل غلب الكثير ! . .

وهنا منظر غروب الشمس الذى طالما تغنى به الشعراء والأدباء ،

ودبجوا فيه كلماتهم ، ونظموا فيه قصائدهم ؛ ولو رأوه هنا لنهنهوا من غرورهم ، ولاقتصدوا فى فخرهم بنظمهم ونثرهم ، فلن يستطيعوا مهما أوتوا أن يصفوا ذلك المنظر الفريد حق وصفه . . . ماء ونار يلتقيان ، فيصنعان أبهى المناظر وأشهى الصور وأعلقها بالقلوب والأرواح . . .

وهنا تجلس وتستعصى على رجاء الانتقال أو التحول . . هنا تتمنى أن تعيش عمرك كله ولو حرموك من كل شىء ، وهنا تظل تعب من الهواء النقى عبا ، وتفتح عينيك لمنظر الغروب العجيب فتحا ، وتنشر صدرك لنسيم البحر نشرا ، وتترك جسمك وأعصابك لذلك الطبيب النطاسى البارع الذى لا تخيب يداه ولا يفسد دواه ! . .

هنا شواهد الإيمان قائمة هاتفة ، فأين يذهب المبطلون ! . . هنا يد الله المبدع الخلاق ، فأرونى ماذا خلق الذين تدعونهم من دونه أيها الجاحدون الأغرار ؟ !

إنك لحبيب إلى نفسى أيها البحر عزيز علىّ أثير لدىّ ، وإنى لأخشى فراقك الأليم ، فأطلْ — بحق ضعفى أمام قوتك — حبلَ وقوفى عندك ، وابتهالى لديك وسعادتى بك ، وعبادتى لربى فى محرابك . . . أطل حبل هذا اللقاء أيها البحر فإنى حزين مأزوم ، ومشوق محروم ، ولن أنسى ماحييت هذه اللحظات التى أقضيها فى رحابك ، واقفاً ببابك ، قارئاً فى كتابك ، متعلقاً بأسبابك . فلا تنس بحق جلالها وجمالها — يابحر — هذه اللحظات ! . .

(٧)

الليل على الشاطىء

وجمعت الشمس خيوطها الزاهية البيضاء ، بعد أن نال منها طول السرى فأحال بياضها إلى اصفرار ، وتهادت الغزالة إلى خدرها كما يقول الأدباء ، أو انتقلت إلى قوم آخرين تعطيهم حظهم من الحياة والنور كما يقول العلماء ؛ وأقبل الليل بجحافله وحنادسه يفرض سلطانه على الشاطىء الحبيب ، وأقبل الظلام من بعيد زاحفاً فى رهبة ليلف الأحياء فى ثوب السكينة والإغفاء ، فهل استطاع الليل حقاً أن يرغم القائمين هنا على النوم أو الهجوع ؟ ! . . . هاهى ذى الأنوار تتلألأ ، والمشارب تكتظ بروادها ، والمسارح والملاهى تعج بأحلاسها ، والطرقات تفيض بأسراب الغانيات ، وتضج بكتائب الفتيان ، وهاهى ذى حياة الليل الصاخبة اللاعبة التى نشهدها فى أحياء الترف من القاهرة والاسكندرية قد انتقلت إلى رأس البر . . . لا ، بل لقد نُقلت إليها على الرغم منها ، فما يصلح الشاطىء الجميل لمثل هذا اللهو المرذول ، ولكن سماسرة المال وتجار الأعراض وعبيد الذهب قد أبوا إلا أن يجعلوا هذا الحرم الآمن الهادىء متجراً من متاجرهم ، وفخاً من

فخاخهم ، فأتوا بحبائلهم ووسائلهم ليستدرجوا الشباب والشواب إلى ما يعود بالخسار والبوار على أخلاقهم وأموالهم ! ...

ولكنى لست من العبث ، ولا العبث منى ، فأين أذهب ، وأين أفر بنفسى ، أو إلى أين تفر بى نفسى ؟... لا تبتأس ياصاح ولا تيأس ياكسير الجناح ، وياسمير الأحزان والأتراح ، ثمّ مواطن للهدوء ، وهناك خلوات لصلوات الشاعر وسبحات الأديب ومناجاة الفنان وشطحات الصوفى ؛ وبمنأى من هذا الصخب تجد فى رأس البر تحت جناح الليل محاريب تصلى فيها كما تشاء ، وصوامع تسمع فيها من صمتها نبض القلوب وهمس الخواطر ! ...

وفى أحد هذه المحاريب النائية عن ضجيج الحياة جلست وأسلمت قيادى إلى ملك الخيال والتفكير ، ووليت وجهى شطر البحر الحبيب أملأ رئتىّ من هوائه ونسيمه ، وأنا أسمع هديره الذى أخذ يشتد ويبلغنى من بعيد ، فيحدث فى جسمى رجفة ، وفى شعورى رهبة ؛ وأمد بصرى هنا وهناك فلا أرى إلا ظلاما خفيفاً ينبسط كأنه ليس له آخر ، ورمالا مبثوثة على أرض الشاطىء تستمع فى صمت وسكون إلى لحن الحياة يردده الركب الذى يمخر بسفينه عباب الكون من أغوار الأزل إلى ساحل الأبد ! ... وأرفع بصرى إلى السماء فأرى هذه الثريات الدقيقة قد انتثرت فى جو السماء ، لتلطّف من سلطان

الليل وتخفف من صولته ، وتعطى القبة الإلهية جمالا فوق جمال :

أكنت من الدور أو فى القصور ترى هذه القبة الصافيه
كأن النجوم على صدرها قلائد ماس على غانيه !

وبقيت فى مكانى من الزمن ما يعلمه الله ، وأنا أسبح فى أجواء ، وأتقلب فى آفاق ، وأتنقل من عالم إلى عوالم ، فيها من الأطياف والرؤى والمعانى ماليس إلى تصويره تصويرَ الصدق والحق والضبط من سبيل .

وأخذ الهواء يشتد فى هبوبه ويعتد بقوته ، حتى لخشيت أن أضعف أمام عنفه وأنا المدل بشبابى وقوة غِلابى ، فأخذت أحسب حسابه ، وأرهب جنابه ، وتذكرت تلك القطعة الفنية العذبة التى سطرها قلم « جبران » يناجى بها الهواء ، وفيها يقول :

« تمرا آنا مترنحاً فرحا ، وآونة متأوهاً نادبا ، فنسمعك ولا نشاهدك ونشعر بك ولا نراك ، فكأنك بحر من الحب يغمر أرواحنا ولا يغرقها ويتلاعب بأفئدتنا وهى ساكنة ...

تتصاعد مع الروابى وتنخفض مع الأودية ، وتنبسط مع السهول والمروج ، ففى تصاعدك عزم ، وفى انخفاضك رقة ، وفى انبساطك رشاقة ، فكأنك مليك رؤوف يتساهل مع الضعفاء الساقطين ، ويترفع مع الأقوياء الشامخين ! .

فى الخريف تنوح مع الأودية ، فتبكى لنواحك الأشجار ، وفى الشتاء تثور بشدة ، فتثور معك الطبيعة بأسرها ، وفى الصيف تعتل وتضعف ، ولضعفك تستفيق الحقول ، وفى الصيف تتوارى وراء نقاب السكون ! . . . أنت تهمس فى أذن الوردة أسرارا غريبة تفهم مفادها فتضطرب تارة وطوراً تبتسم ! . . . أنت تبطىء هنا وتتسارع هناك وتتراكض هنالك ، ولكنك لا تقف قط ، وهكذا تفعل فكرة الإنسان التى تحيا بالحركة وتموت بالسبات ! . . أنت تكتب على وجه البحيرة أشعاراً ثم تمحوها ، وهكذا يفعل الشعراء المترددون ...

من الجنوب تأتى حاراً كالمحبة ، ومن الشمال تأتى بارداً كالموت ومن المشرق لطيفاً كملامس الأرواح ، ومن المغرب تتدفق شديداً كالبغضاء ؛ أمتقلب أنت كالدهر ، أم أنت رسول الجهات تبلغ إلينا ما تأتمنك عليه ؟!.

تمر غضوباً فى الصحارى فتدوس القوافل بقساوة ثم تلحدها بلحف الرمال ، فهل أنت ذلك السيال الخفى المتموج مع أشعة الفجر بين أوراق الغصون ، المنسل كالأحلام فى منعطفات الأودية حيث تتمايل الزهور شغفاً بك ، وتتخاصر الأعشاب سكراً من أنفاسك ؟.

إلى أين تتسارع بأرواحنا وتنهداتنا وأنفاسنا ؟ إلى أين تحمل رسوم ابتساماتنا ؟ وماذا تفعل بشعلات قلوبنا المتطايرة ؟ هل تذهب بها

إلى ما وراء الشفق ، إلى ماوراء هذه الحياة ، أم تجرها فريسة إلى المغائر البعيدة والكهوف المخيفة ، وهناك تقذفها يميناً وشمالاً حتى تضمحل وتختفى ؟ ! .

فى سكينة الليل تبيح لك القلوب أسرارها ، وعند الفجر تحلك العيون اهتزازات أجفانها ، فهل أنت ذاكر ما شعرت به القلوب وما رأته العيون ؟! ..

بين جنحيك يستودع الفقير صدى انسحاقه ، واليتيم حرقته ، والحزينة تأوهاتها ، وطى أثوابك يضع الغريب حنينه ، والمتروك لهفته والساقطة عويل نفسها ، فهل أنت حافظ لهؤلاء الصغار ودائعهم ، أم أنت كهذه الأرض لا تودعها شيئاً إلا تحوله إلى جسمها ؟! ..

أسامع أنت هذا النداء وهذا العويل ، وهذا الضجيج وهذا البكاء أم أنت كالأقوياء من البشر تمتد إليهم الأكف فلا يلتفتون ، وتتصاعد نحوهم الأصوات فلا يسمعون !؟ .. أسامع أنت ياحياة للسامع ؟! » .

* * *

وتداعت المعانى وتسلسلت الأفكار ، فإذا بكلمات جبران تنسينى ما أنا فيه ، وتنقلنى من رأس البر إلى سهول أمريكا فى طرفة عين ، فأتذكر طرفة أدبية حدثت هناك فى صيف عام ١٩٢١ م ، إذ خرج جبران خليل جبران ونسيب عريضة وميخائيل نعيمة وعبد المسيح حداد ، وهم من كبار الأدباء العرب بالمهجر ، كى يتمتعوا بمناظر الطبيعة

والخلاء فى مزرعة « كاهونزى » بأمريكا ، ولما دنا المساء ، وغابت الشمس ، ولف الظلامُ الكون ، أخذوا يسيرون الهوينى على الطريق العامة ، وهم فى حديث ذى شجون ، وبينما هم كذلك إذ خطر لميخائيل نعيمة هذا البيت :

أسمعينى سكينة الليل لحناً من نشيد السكينة الأبدية !

فألقاه على مسامع رفاقه الثلاثة ، فوقع من نفسهم موقعاً حسناً ، وجعل كل واحد يُتبعه ببيت أو نصف بيت ، والآخر يزيد على ما قال سابقه ، وهكذا ، حتى أنشأوا من ذلك الأبيات التالية :

أسمعينى سكينة الليل لحناً من نشيد السكينة الأبدية
وافتحى يا نجوم عينىّ علىّ أن أرى بينك الطريق الخفية
واجعلى يا رياح منك بساطاً واحمليني إلى الرياض العلية
واخطفى يا نسائم الليل روحى وخذيها منى إليك هدية
ودعينى هناك أسرح حراً إنما العبد يشتهى الحرية
طال سجنى، وطال فى السجن يأسى واحتمالى لحالتى البشرية
أنا مالى وللورى ؟ فارفعينى ودعيهم فى بؤسهم والرزية
ملّ قلبى بغضاءهم وهواهم مل قلبى سبابهم والتحية
ولسانى قد صار يخشى لسانى وجنانى أضحى علىّ بلية
وفراشى شوكا ، ونومى ارتعاشاً ويقينى شكا ، وبرى خطية

وشرابى تعـللاً ، وأواما وطعامى مجاعـة روحيـة
ولباسى رماد فـكرى ، تذريه رياح تثيرهـا الأمنيـة
تلك حالى: حرب عوان ، فإن أظفر فنفسى قتيلة أو سبية !

ولست أدرى . . . أتصور هذه القصيدة نفسية واحدة ، وتنبىء عن ذهن فرد من أفراد منشئيها ، فنقول إن أفكار ذلك الفرد كانت ساعة الإنشاء للقصيدة قوية ، وكان ذهنه متوقداً ، فاستطاع أن يفرض شخصه وطريقة تفكيره على زملائه فقلدوه وتابعوه فى تلك الساعة ، أم أن الناس جميعاً — وخاصة أصحاب الحس المرهف والشعور الفياض منهم — تتقارب أهواؤهم ، وتتلاقى أرواحهم فى مثل هـذه المجالى الطبيعية والسبحات الروحية ، التى ينسى فيها الإنسان أغراضه وأعراضه وأمراضه الاجتماعية والفردية ، ويلقى بنفسه بين تلك الأمواج النورانية المطهرة إلى حين ! . . .

* * *

أوغل الليل فلنقم . . . وإنك لعائد إلى هذه الجنة أو ذلك المعبد مرات ومرات ، فلئن فاتك اليوم بعض ما تريد ، إنك لطالبه فواجده عندما تريد ! . . .

ولـكن مهلا مهلا ؛ فهذا هو القمر يشرق عليك وعلى الدنيا بعد طول انتظار ، ولاذع شوق وعاصف حنين . . . هذا هو القمر الذى

سامر المحبين ، وساير الهـائمين ، ونادمَ الهائنين ، وشاطر المحزونين ، وكان لـكل من أراد هديا ونوراً ، وفرحة وسروراً . . . فلتشرق أيها القمر ، ولتتربع فوق عرشك السماوى الذى لايدانيه عرش ، ولتتناول صولجان سلطانك الذى لايساميه سلطان ، ولتغمر الأبصار بضيائك ، والقلوب بفيض رحمتك ، والأخيلة ببديع وحيك ، ولتبسط غلالتك الفضية الزاهية الباهية على كل شىء فى الوجود ، على الدور والقصور ، على الجبال والرمال ، على الرياض والغياض ، على السهول والتلول ، على البحار والأنهار ، على العباد والجمـاد ، على الغبراء والسماء ، على اليابس والمـاء ، على الهواء والبناء ، على الأشقياء والسـعداء ، على الأغنياء والفقراء ، فما تعرف قريباً و بعيداً ، أو عدواً وحبيباً ، أو مُعرضاً ومنيباً ، بل أنت للجميع على حالة سواء ! !

هأنذا قريب منى ، أراك وأتمتع بنورك وضوئك ، ويخيل إلى أنك على بعد مئات من الأمتار فحسب ، وكأننى لو اتخذت إليك سلماً لبلغتك ، ولمست صفحتك الرقيقـة الناعمة البيضاء ، ولـكن العلماء يقولون : إنك على الرغم من هذا الظن — بعيد جداً ، مع أنك أقرب جسم سماوى إلى الـكرة الأرضية ، ويقولون : لو أن قطاراً سار نحوك بسرعة خمسين ميلا فى الساعة لوصـل إليك فى مائتى يوم ! . . . أفصحيح هذا أيها القمر ؟ ! .

ويقولون — وإنا لنعجب لما يقولون — : « قد يظن بعض الناس أن اقتراب القمر من الأرض مما يزيدها جمالاً ، ومما يغمرها بهاء وسناء وسحراً ، ومما يجعل الإنسان يتمتع بنوره وبأشعته الفضية أكثر من تمتعه الحاضر ؛ قد يكون هذا الظن فى محله ، فينعم الإنسان حينئذ بمناظر القمر ، ويجد فيها كل الجمال وكل المتاع ، ولكن ذلك لايكون إلا بثمن ، وعلى حساب كوارث وبلايا تصيب الأرض من اقترابه منها ، فعلى فرض أن هناك من العوامل مايقرب القمر من الأرض ، وما يجعله على بعد ستين ألفاً من الأميال فقط ، فحينئذ يزيد المد والجزر ٦٤ مرة ، فتُغمَرُ الموانى والمدن وما يجاورها ، وقد يلتقى من جراء ذلك البحران الأبيض والأحمر ، ولا ينجو من اليابسة إلا القليل كالجبال والربوات العالية . . . وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، بل يتعداه إلى الملاحة ، فلا تعود تأمن سلوك البحار ودخول الموانىء[1] » ! . . .

أفصحيح هذا أيها القمر ؟ ! . . أفصحيح أن لك أكبر الأثر فى إحداث المد والجزر كل يوم ، وأنك لذلك تتحكم فى ماء البحار ، ومن جهة أخرى تتحكم فى الملاحة والتجارة وما يتصل بهما من شئون ؟ . .

أفصحيح أن فيك آلافاً من الأودية والجبال والأنهار والسهول ،

---

(١) كتاب « الكون العجيب » لطوقان .

وأنك لست كما نظن مرآة نقية صافية صيغت من النور وللنور، بل فيك كَلَف ونتوء وهضاب وتلاع وفجوات ؟! . .

أفصحيح — كما يقول العلماء — أنك ختال خداع ، تبدو لنا بوجهك فنظنك جميلا كل الجمال ، رقيقاً كل الرقة ، صافياً كل الصفاء ، نقياً كل النقاء ، ولكنك تخفى وراء ذلك ما يفزع ويهول ، فأنت خال من الهواء ، ونهارك محرق ، وليلك بارد ولاذع ، وأشعتك ليست من ذاتك ، بل هى مستعارة من الشمس القوية الجبارة ، فأشعتك إذن أكذب من سواد الخضاب فى اللمة البيضاء ؛ وفيك البراكين المخيفة والوديان الموحشة والأراضى المقفرة ؟! . .

لشد ما خدعتنا إذن أيها الكوكب العجيب والجرم الغريب ... بل لشد ما تخدعنا هذه الحياة عن نفسها . . . كلما حسبناها تبدت وتجلت ، وانهتكت أسرارها وانكشفت أخبارها ، تعقدت وتلوت ، وأظهرت لنا من عجائبها الجديد . . « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ! .

* * *

فى الناس خداعون أيضا أيها القمر . . . فى الناس طغام لئام ، ينسَبون إلى الإنسان ولو كان ثمَّ إنصاف لعُدوا من أحط أنواع الحيوان . . . فيهم من يلبس مسوح الرهبان ، ويظهر بمظهر الملاك ، ويعطيك من لسانه وبيانه ما يُشتهى ويُطلب ، ولكنه يخفى وراء ذلك

نفس الثعلب وأخلاق الذئب وطباع الوحش .

لقد لقينا من هؤلاء ما لقينا ، وابتلينا من غدرهم بما ابتلينا . . . لقد سقيناهم الود كئوساً مترعة تفيض بالإخلاص والوفاء ، وصابرناهم على ضعفهم ونقصهم ، وغالبنا شهواتهم وهفواتهم ، فما ازداد اللئيم إلا خداعا ، ولا ازداد الوضيع إلا اتضاعا ، ولو كانت البلية مقصورة على أناس لا تربطك بهم إلا أسباب الحياة العامة لهان الخطب وخفت الشكوى ، ولكنك تأسى ولا تنسى حينما تأتمنك أيامك على قوم منك ولك وبك ، فتخلص لهم ودك ، وتمد إليهم رفدك ، وتصطفيهم عندك ، فلا يشكرون النعمة ، ولا يذكرون الصنيعة ، ولا يحفظون اليد ، ولا يقرون بإحسان ، بل يكفرون كفر الشيطان ، وإذا أنت ثائر غاضب ، تثور لكرامتك المجروحة ، وتغضب لصنيعك المضَيَّع ؛ فتتمرد على المودة ؛ وتعصف بما بنته يد الوهم والظن الجميل من أحلام وآمال :

هو يتكم جهدى، وزدت على الجهد ... ولم أر فيكم من يقيم على العهد !
فإن أمس فيكم زاهداً بعد رغبة ... فبعد اختبار كان فى وصلكم زهدى
لعمرى لقد أغضيت فيكم على التى ... تجرعنى المكروهَ من غصص الحقد
تأنيتكم بُقيا الصديق ، لتقصدوا ... وتأبون إلا أن تجوروا عن القصد
تعزوا بيأسى عن هواى ، فإننى ... إذا انصرفت نفسى فهيهات من ردى
أبى القلب إلا نبوة عن جميعكم ... كنبوتكم عنى ، ففى السحق والبعد!

أرى الغدر ضداً للوفاء ، وإننى لأعلم أن الضد ينبو عن الضد
إذا ختمُ بالغيب عهدى فمالكم تُدِلون إدلال المقيم على العهد ؟ !
صِلوا فافعلوا فعل المدل بوصله وإلا فصدوا وافعلوا فعل ذى الصد
فكم من نذير كان لى قبلُ فيكم وهأنذا فيكم نذير لمن بعدى
فوا أسفا من صبوة ضاع شكرها مضت سلفاً فى غير أجر ولا حمد !!

إن الأمر لكذلك ، ولا بد للكريم من غضبة ، ولا بد للحليم من ثورة ، وياذلة من لايغضب ، ويا ضيعة من لايثور ! ! . .

* * *

إنك لجليل أيها الليل ! ينسلخ منك النهار ، فإذا أنت تلف الكون بردائك الرهيب ، فتنقل أصحاب القلوب من حال إلى أحوال ، وتذكرهم بسلطان الكبير المتعال ، فلو شاء هذا المسيطر الجبّار القهار لجعل النهار باقياً لايزول ولا يتغير ، فيمل البشر ويسأمون ، ولو شاء لجعل عليهم الليل سرمداً ، فضلوا فى الظلمات ، وحُرِموا من الملذات ، ولكنه بفضله ورحمته دَاوَلَ بينهما ؛ فجعل لكلٍّ منهما موعداً ، فلا الليل سابق النهار ، ولا النهار بباغٍ على الليل ؛ بل لكل قدر مقدور ، وأجل معلوم : « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمَداً إلى يوم القيامة مَنْ إلٰهٌ غَيْرُ الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون ؟ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمَداً إلى يوم القيامة مَنْ إلٰهٌ غَيْرُ الله يأتيكم بليل تسكنون

فيه ؟ أفلا تبصرون ؟ ! . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

إنك لنعم المذكر الواعظ أيها الليل ؛ ففيك تهدأ الأجساد وتتيقظ الأكباد ، وفيك تنشط القلوب بعد أن يمس الأجسامَ اللغوب ، وفيك تسمو الأرواح على رغبات التراب وغرائز الحيوان ، فيحلو التدبر ويمتد سبيل التفكر ، ويصبح المرء أدنى إلى عالم الملائكة منه إلى عالم الأشباح ، ولذلك عرف لك كتاب الله الحكيم قدرك ، فجعلك محل العبادة ومهبط الاستغفار ومحط الاعتبار ، ووقت القنوت والصلاة ، والتهجد والخشوع ، فقال : « إن ناشئةَ الليل هي أشدُّ وَطْئاً وَأقْوَمُ قِيلا » . وقال مخاطباً سيد العابدين وخاتم النبيين : « إنَّ ربكَ يعلمُ أنك تقومُ أدنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ الليل وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطائفة من الذين معك » وقال : « وَمِنَ الليلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طويلا » . وقال : « وَالَّذِينَ يبيتونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَاما » . وقال : « تتجافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطمعا » . وقال : « أقمِ الصلاةَ لِدُلُوكِ الشمسِ إلى غسقِ الليلِ وقرآنَ الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهودا » وذلك مما ينهض لك بالشهادة على أنك من أعظم الآلاء ! .

أيها الليل ! . . إنك لجليل ، وإنك لعظيم ، ولكنه لا يشعر بجلالك وعظمتك وسلطانك إلا أصحاب القلوب ! ! .

واستيقظتُ مع الصباح الباكر ، قبل أن تطلع الشمس ، فرأيت الكون كالإنسان يتنفس ، فكأنه قائم من نوم عميق ، فهو يسترد نشاطه ويستعيد قوته ، ويبدو متهيئا لوثبة أخرى من وثباته نحو الأمام . وخيل إليَّ أن الطبيعة بمجاليها ومزارعها وربواتها وبيوتها وأشجارها تغتسل وتتطهر ، كأنما قد ألمت أثناء الليل بما يستوجب هذا التطهير ، فتذكرت صباحاً كنت أشهد فيه القاهرة الوسيعة الفسيحة عقيب الفجر وقبيل نور الشمس ، فإذا بقطرات الندى والضباب والنسيم الرطب يشمل كل نواحيها ، ويغمر كل شيء فيها ، فكأنها تتطهر متوثبة أو متأثمة ؛ وكأنها استحضرت ما كان فيها تحت ظلام ليلها الذاهب من مخازٍ وفضائح ومقابح ، ومناكر ومآثم ، فاستعظمت ذلك فاستعانت بهذا الطهور الطبيعي الغامر ، فألقت بهيكلها بين أمواجه لتخرج منه نقية صافية ! ! . . .

لقد خيل إلى ساعتئذ أنه تطهير حسي ومعنوي ، كتطهير الإنسان لجسه ونفسه سواء بسواء ؛ وكأن الطبيعة بهذا الاغتسال تذكر الإنسان بأن يطهر ذاته وروحه كلما احتاجا إلى تطهير . .

وتذكرت أياما كنت أخرج فيها إلى الحقول قبيل الشروق ، فأشهد قطرات الندى فوق أوراق البرسيم والذرة والقطن ، فآخذ هذه القطرات بيديَّ وأمسح بهما وجهي ، كما كان يفعل الرافعي رضوان الله عليه ،

فأجد لذلك برداً وسلاما ، ولذة وانتعاشاً ، وبهجة وانشراحا ، فأصدقه حين قال إن ذلك يجلب صفاء النفس وضياء الوجه وصحة البدن ! ..

ياعجبا كل العجب ! ... حتى النباتات البريئة الوادعة تتطهر كل صباح ! .. فمن يدرى ... قد يكون لمسها نجس أو قبلها ملوث أو أكل من ثمرتها موبوء ، أو شهدت مالا يصح أن تراه ، فهى تجعل هذا التطهير اليومى تكفيراً عن ذلك التفريط !! ..

تطهر أيها الإنسان حسياً ومعنويا .. فكل شىء فى الكون يتطهر !! ...

وبزغت الشمس قوية فتية وضاحة ، فوقفت أرقبها وأعجب بمنظرها ، وأتملى من سحرها ؛ وكما راعنى غروبها راعنى إشراقها ؛ ولم لا وتلك آية الله فى الكون ، وكل ما أبدعته يد الخلاق العظيم فهو جميل ! ..

(٨)

حديث عن الغنـــاء

وحاذينا مغنى من المغانى التى يأوى إليها أهل النعمة والثراء من المصيفين فى رأس البر ، فأشار أحد صاحبىّ وقال : هنا تعيش كوكب الشرق الآنسة أم كلثوم ! . فقال له الثانى : صه ، واخفض من صوتك حتى لا تسمعنا :

فأذن المغـــنى تحس النســـ

ـيم ، وتسمع فى الكأس جرس الحبَبْ !

فتحمس صاحبى ، وكأن نشوة من الطرب سرت فى طواياه فكانت حمياه ، فهتف : دعنى يا صاحبى أتحدث ، سمعتنا أم لم تسمع ، فما نحمل لها إلا كل إعجاب . هنا تنزل الشادية الساحرة الماهرة الباهرة ؛ هنا تعيش أم كلثوم المغنية المؤدبة الرقيقة ، اللطيفة المعشر ، البارعة النكتة الخفيفة الدعابة ، الأديبة التى تحفظ الكثير من القرآن الحكيم ، والتى قرأت أغانى أبى الفرج ، والتى تجيد الحوار ، وتحسن الممازحة مع احتفاظ بالأدب وحسن السمعة ، والتى تفهم ما تقول ، وتتأثر بما تردد ، وتنغمر فى جو ما تنشد ، والتى تعتز بفنها وتأسر بمواهبها لا بمظهرها ، والتى

لا تتنكر لماضيها وتعترف بأنها كانت فقيرة ، وأنها فلاحة من صميم الشعب . . هنا أم كلثوم التى يقول لها الزهاوى :

يا أم كلثوم إنا أمة رزحت تحت المصائب أحقابا فسلّينا

هنا أم كلثوم التى سحرتنا وأسرتنا بصوتها الشجى ، ونبراتها الواضحة ، وإنشادها المبين ، والتى استنهضت العزائم وأحيت القلوب بما رددت من كريم الأغانى ونبيل الأناشيد .

هنا التى رددت « سلوا قلبى » و « يا شباب النيل » و « فرحة الشرق » و « بغداد » و « أراك عصى الدمع » ، وغيرها وغيرها من خوالد القطع .

قال الأول : أراك جد مفتون بفن أم كلثوم ! . فقال الثانى : ومن ذا الذى لا يفتن بهذا الصوت الجميل الرائع ، المطواع الباهر ؟ . أوَ تريد يا سيدى أن تتخذ موقفك معارضاً للغناء ؟ . أو لست ممن يطربون ؟ . أتنكر على اللحن مكانه وسلطانه ؟ .

قال الأول وله ثقافته العربية : كلا ، فما ينكر أثر هذه الألحان إلا مغلَق القلب أو منكِر الواقع ، ورحم الله ابن عبد ربه حين يصف الغناء فى عقده بأنه « مراد السمع ، ومرتع النفس ، وربيع القلب ، ومجال الهوى ، ومسلاة الكئيب ، وأنس الوحيد ، وزاد الراكب ؛ لعظم موقع الصوت الحسن من القلب ، وأخذه بمجامع النفس » . ولقد رووا

أن الأطباء قالوا : « إن الصوت الحسن يسرى فى الجسم فيصفو له الدم ، ويرتاح القلب ، وتهتز الجوارح ، وتخف الحركات » .

وقديماً كان الفحول من الآباء والأجداد يطربون للصوت الجميل ، ويحسون له فى نفوسهم هزة وأريحية ، وكم من نغمات مشجيات انبعثت من لهاة عبقرية ولسان صناع وفم عذب النبرات ، فأحيت موات جبان ، وبسطت يد شحيح ، وفرجت كرب مكروب ، وجلبت المسرة لحزين أسيف ! . .

حتى الذين تزمتوا وتحنثوا كان لا يعدمون من الشواهد والسوابق ما يبيح لهم أن ينصتوا إلى كلمات ترددها الشفاه المشجيات ، مادام لهذه الكلمات عفافها وكريم غايتها . فهم يروون مثلا أن نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام كان يعجبه صوت بلال فى الأذان ، ولما سمع صوت أبى موسى الأشعرى أثنى عليه ، وقال له : « لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود » .

ودخل الشعبي الواعظ الزاهد المتبتل على بشر بن مروان والى العراق ؛ وعنده جارية ؛ فغنت بقول الشاعر :

ومما شجانى أنها يوم ودعت تولت وماء العين فى الجفن حائر
فلما أعادت من بعيد بنظرة إلىَّ التفاتاً أسلمته المحاجر

فجعل الشعبي يرشدها إلى طرق الأداء ؛ ويفاضل بين أساليب الغناء ؛ دون أن ينكر عليها ما هى فيه ! . .

وقدم تاجر عراقى يتجر فى ملابس النساء بخُمُرٍ ليبيعها فى المدينة ؛ فكسدت السود منها ، فشكا ذلك إلى الدارمى ، وكان قد ترك الشعر وتنسك ولزم المسجد ، فترك الدارمى ثياب نسكه ، وتظاهر بحاله الأولى ، وقال أبياتاً أمر أحد المغنين بغنائها ، وهى :

قل للمليحة فى الخمار الأسود ماذا فعلت براهب متعبد ؟
قد كان شمر للصلاة ثيابه حتى خطرتِ له بباب المسجد
ردى عليه صلاته وصيامه لا تقتليه بحق دين محمد !

فانتشر هذا الغناء فى المدينة ، وقال الناس : لقد رجع الدارمى وعشق صاحبة الخمار الأسود . فلم تبق مليحة فى المدينة إلا ذهبت إلى التاجر العراقى واشترت من الخمر السود خماراً ؛ حتى باع التاجر جميع ما كان معه ؛ وجعل إخوان الدارمى النساك يسألونه أثناء ذلك : ماذا صنعت ؟ . فيقول : ستعلمون نبأه بعد حين . فلما نفدت بضاعة العراق رجع الدارمى إلى نسكه وعبادته ؛ بعد أن أدى عن طريق الغناء هذا المعروف !! . .

ومر عبد الله القس شبيه عطاء بن رباح فى العبادة والتقوى على سلامة المغنية وهى تغنى ، فوقف يسمع غناءها معجباً به ، فرآه سيدها ، فقال له : هل لك أن تدخل فتسمع ؟ . فأبى ، فلم يزل به حتى دخل ، فقال : أوقفك فى موضع بحيث تراها ولا تراك !! . وأخذت سلامة

تغنى وعبد الله يسمع معجباً مطربا ، ثم أحست سلامة بملاحظته لها فغنت :

رُبَّ رسولين لنـــا بلّغا ... رسالة من قبـل أن يبرحا
لم يُعملا خفـا ولا حافرا ... ولا لساناً بالهوى مفصحا
حتى اســتقلا بجوابيهما ... بالطائر الميمون قد أنجحا
الطرف والطـرف بمثناهما ... قضيا حاجاً ، وما صرحا !

فأغمى عليه وكاد يهلك ! . . وتوثقت أسباب المودة بينهما بعد ذلك ، وذات يوم قالت له : يا عبد الله ، إنى أحبك . فقال لها : وأنا والله أحبك ! . قالت : وأحب أن أضع فمى على فمك ؛ فقال : وأنا والله أحب ذلك . قالت : وما يمنعك من ذلك ولا رقيب هناك ؟ قال : أخشى أن تكون صداقةُ ما بينى و بينك عداوةً يوم القيامة ، أما سمعت الله تعالى يقول : « الأخـلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » ؟ . ثم تركها ومضى ، بعد أن أوقد جوانحه بلظى هذا الغناء الجذاب الذى تترامى إليـه أسماع الفحول كما يترامى الفراش على لهب النار ! ! .

وكان معاوية يعيب على عبد الله بن جعفر سماعه للغناء ، وذات ليلة مر معاوية ببيت عبد الله فسمع فيه غناء ، فجذبه إليه ، فوقف يسمع ساعة ثم انتبه فمضى وهو يقول : أستغفر الله ! أستغفر الله ! . . ثم مر معاوية مرة أخرى فسمع عبد الله يصلى فى جوف الليـل ، فوقف يسمع

قراءته ، ثم قال : الحمد لله ، خلطوا عملاً صالحا وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم . فبلغ ذلك عبدَ الله بن جعفر ، فدعا معاوية إلى طعام فى منزله ، وأحضر ابن صياد المغنى المشهور ، وقال له : إذا رأيت معاوية واضعاً يده فى الطعام فحرِّك أوتارك وغنِّ . . . فلما وضع معاوية يده فى الطعام غنى ابن صياد :

يا لبينى أوقدى النـــارا إن من تهوين قد حارا
رب نار بت أرمقها تقضم الهندى والغـــارا
ولهـا ظـبى يؤججها عاقد فى الخصر زنارا

فأعجب معاوية بالغناء إعجابا شديداً ، ورفع يده من الطعام ، وجعل يضرب الأرض برجله طربا ؛ فقال له عبد الله : يا أمير المؤمنين ! إنما هو مختار الشعر يركب عليه مختار الألحان ، فهل ترى به بأساً ؟ فقال معاوية : لا بأس بحكمة الشعر مع حكمة الألحان !! .

وهكذا انتزع ابن جعفر هـذه الشهادة القيمة من معاوية الذى كان يعيب عليه سماع الغناء حتى عرف لذته ونشوته ، فأقرَّ له !..

وسمع معاوية أيضاً غناء عبد الله ليلة فطرب له طربا شديداً وقال : والله إنى لأسمع شيئا تكاد الجبال تحرُّ له وما أظنه إلا من تلقية الجن ! .

ولما رأى معاوية أن عبد الله يجمع بين الغناء أول الليل ، والقراءة والصلاة آخره ، قال لزوجته فاختة : هؤلاء قومى ، ملوك بالنهار ، ورهبان بالليل ! .

وزار معاوية عبد الله ليلة فسأله عن مكان شخص غائب ، فقال عبد الله له : هذا مجلس رجل يداوى الآذان يا أمير المؤمنين ؛ ففهم معاوية ما يقصد وقال : فإن أُذنى عليلة ، فمره فليرجع إلى موضعه ! . . فعاد المغنى وغنى ، فحرك عبد الله رأسه ، فقال له معاوية : لم حركت رأسك يا ابن جعفر ؟ . قال أريحية أجدها يا أمير المؤمنين ، لو لاقيت عنها لأبليت ، ولئن سئلت لأعطيت ! .

ولما تفنن المغنى فى الغناء طرب له معاوية أيضا فحرك رجله ، فقال له ابن جعفر : يا أمير المؤمنين ، سألتنى عن تحريك رأسى فأخبرتك ، وأنا أسألك عن تحريك رجلك ! . فقال معاوية : كل كريم طروب . ثم قام و بعث بالهدايا السنية إلى ابن جعفر وجلسائه .

واجتمع الناس ذات يوم بالعقيق ، وفيهم ابن عائشة المغنى ، وكان يُدل بغنائه ، وجاء الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وأمامه خادمان كأنهما ساريتان ، وكلفهما بأن يهجما على ابن عائشة فى غفلة منه ، ويأخذا بضبعيه ، ولا يتحركا حتى يفعل ما يريد ؛ وإلا قتلهما ، ففعلا ما أمر به ، ففزع ابن عائشة وقال : من فعل هذا ؟ فقال الحسن : أنا يا ابن عائشة . قال : لبيك وسعديك ، وبأبى أنت وأمى . ثم أخبره الحسن بما عقد عليه العزم قائلا : لن يترك الخادمان ضبعيك إلا إذا غنيت للناس مائة صوت . و بعد محاورة ومداورة أطاع ابن عائشة فجعل

يغنى حتى ثمل الناس وطربوا ، فكبروا تكبيرة واحدة ارتجت لها أرجاء المدينة . وقال الناس للحسن : صلى الله على روحك حياً وميتاً ، فما اجتمع لأهل المدينة سرور قط إلا بكم أهلَ البيت ! .

ومر عمر الوادى على عبد أسود يغنى فأعجبه غناءه فجاءه وقال له : أعد ما سمعت . فقال العبد : والله لو كان عندى قرى أقريك به مافعلت ولكنى أجعله قراك ؛ فإنى والله ربما غنيت بهذا الصوت وأنا جائع فأشبع ، وربما غنيته وأنا كسلان فأنشط ، وربما غنيته وأنا عطشان فأروى ؛ ثم ابتدأ فغنى :

وكنت إذا مازرت سعدى بأرضها ... أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ودَّ جليسها ... إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها !

قال عمر : فحفظته منه ثم تغنيت به على الحالات التى وصف ، فإذا هو كما ذكره ! .

* * *

امتلأ صاحبنا فرحاً وسروراً بهذه الشواهد ، وكأنه قد وجد فيها ضالة عزيزة عليه ظل ينشدها طويلاً ، ثم وجدها فجأة على غير انتظار ، فقال :

ذاكرنى يا صديقى هذه النقول ، وزدنى منها ؛ حتى تكون سلاحاً لى ألقى به قوماً تزمتوا أو تحجروا فناهضوا الغناء فى مغالاة وإسراف ، دون تفرقة منهم بين ما يحمد منه وما يعاب ! .

وأردت أن نحدد الموضوع تحديدا علميا ونفسيا ودينيا ، حتى نتبين فيه وجهة الحق وقولة الصـدق فلا نسرف ولا نتعسف ، ولذلك ابتسمت قائلاً : أولا تريدون أن تسمعوا قولة من « رجل الدين » فى الموضوع ؟.. فملا ضحكهما وقالا : دعنا من « رجل الدين » الآن !.

* * *

وفى المكان الرحب ، والضوء الساطع ، والجو الضاحى ، والهواء الصافى ، والأفق المشرق ، والشاطئ الطاهر ، شاهدت فتى يدخن ! .. يا للمضايقة ! .

لكأن القدر أراد أن يختبرنى بهذا الابتلاء ، أو لكأنه أراد أن يمزج أمامى الخير والشر ، لأتعرف مقدار ما بينهما من فرق واختلاف !

إننى بطبيعتى وخبرتى أكره التدخين وأجاهده ، ولكنى أحيانا أحتمله على الرغم منى فى أمكنة غير هذا المكان ، أما هنا فليس إلى الاحتمال سبيل .

إن التدخين فى ذاته مضر من ناحية الصحة والمال والخلق والعادة وهو أمر معكر للصفو فى هذا المكان الذى خلص — أو يجب أن يخلص — للماء والهواء ، والصفاء والنقاء ، والمتعة والهناء ؛ وهو أمر مشين ومعيب إذا صدر من فتى شاب ، لايزال حدثاً ، ولايزال جسمه غضاً بضا ، ولاتزال عشيرته تأمل الاعتماد عليه عند النوازل والخوازب.

وهو خيانة حينما يدخن المرء لفافة أجنبية ، تفعل فعل السم فى المواطنين ، ثم تبتز أموالهم لتعمر بها جيوب الوارثين من المحتلين ؛ ولقد كان هذا الشاب يدخن لفافة أجنبية . . . والتدخين أخيراً سفه وإنضاء إلى تهلكة إذا لم تراع فيه الاعتدال وحسن الاختيار ، ولقد كان هذا الشاب مع الأسف يدخن لفافة كثيفة سوداء من ذلك النوع العنيف السخيف ! .

متى ينطلق الشرق الذليل المسكين من أسر هذه العادات ، وأسر تلك المهلكات ؟ . . متى أيها الشرق ؟ ! .

(٩)

من القرآن

وأغلب ما يسامر خيالَ المرء على الشاطىء حديثُ البحر والماء والهواء ، وقد مر بخاطرى وأنا فى سبحة من سبحات هذه المسامرة موقف القرآن الكريم من هذه الأمور الثلاثة : البحر والماء والهواء ..

والقرآن المجيد كتاب العربية الأعلى ، وينبوع البيان الأسمى ، وحجة الأديب التى لا تخون ، وضوؤه الذى لا يخبو ، وفى إيجازه سر من أسرار إعجازه ، وفى رموزه وإشاراته ، من البلاغة والشفاء ، ما فى تصريحه وعباراته ؛ ومن اللفظة القرآنية الوحيدة يستطيع ذو اللب والقلب أن يفهم الكثير ، وأن يستنبط الغزير ...

ولقد راعنى وأمتعنى أن رأيت كتاب الله العلى الأعلى يُضفى على الطبيعة ، وهى صنعة الخالق القدير ، من الجلال والجمال ، ما يستثير الألباب ويسحر العقول ، وهو فى كل مناسبة يحرِّض أقوى التحريض على التطلع إلى مجالى الطبيعة ومشاهد الكون وأرجاء الحياة ، ويدعو إلى الأخذ من هذه الطبيعة والتمتع بها والاعتماد على دلائلها فى الاهتداء إلى خالقها سبحانه .. وكأنه يريد أن يقول لأهليه : إنه ليس بعبد صحيح

من لم يكن قوياً فى جسمه وفهمه وهضمه لمعانى الحياة ، وتقبله لمطالع جمالها وروعتها ، فيعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ، وفى الوقت نفسه يعمل لآخرته كأنه يموت غدا ، وليس ثمة من خلاف بين السعيين ، ولا من تناقض بين المنهجين ، بل إن شئت الحق كاملا فقل إن الدنيا والآخرة شىء واحد، ما دام المرء يحيا وسطاً بين الإفراط والتفريط ، فالدين يشمل جميع مظاهر الحياة الطيبة الصالحة ، والدنيا العامرة بالقوة والخير والجمال هى تطبيق لهذا الدين الكريم الذى يريد لأهليه اليسر ولا يريد بهم العسر . . .

ولقد رأيت القرآن الكريم فيما يتعلق بالشاطىء يكثر من ذكر البحر والماء والرياح ويقصد بها الهواء ، والحديث يكثر عادة عن الشىء صاحب الشأن والخطر ، وليس من منهاج هذه الصلوات الفكرية أن تميل إلى تفصيل بحثٍ فى موضوع يستحق الإفراد والتفرغ ، فحسبى أن أسوق إليك طائفة من الآيات الكريمة ، لتطيل الوقوف أمامها والتفكير فيها ، وإن وجدتَ فيك الرغبة إلى البحث فارجع إلى معانى هذه الآيات فى التفاسير المختلفة ، واستنبط منها الأسرار والإشارات ، فإنك واجد عجباً من عناية البارىء المصور بلفت الأبصار والبصائر إلى الطبيعة وما فيها :

البحر

(١) « ... والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس »[1] — البقرة ١٦٤

(٢) « أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة » — المائدة ٩٦

(٣) « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر » — الأنعام ٥٩

(٤) « هو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر » — الأنعام ٩٧

(٥) « وهو الذى يسيركم فى البر والبحر » — يونس ٢٢

(٦) « وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار » — إبراهيم ٣٢

(٧) « وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً » — النحل ١٤

(٨) « ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله » — الإسراء ٦٦

---

(١) وضعنا فى آخر كل آية اسم السورة ورقم الآية فيها.

(٩) « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه » — الإسراء ٦٧

(١٠) « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر » — الإسراء ٧٠

(١١) « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » — الكهف ١٠٩

(١٢) « ألم تر أن الله سخر لكم مافى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره » — الحج ٦٥

(١٣) « أمّن يهديكم فى ظلمات البر والبحر » — النمل ٦٣

(١٤) « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام » — الشورى ٣٢

(١٥) « وله الجوار المنشئات فى البحر كالأعلام » — الرحمن ٢٤

(١٦) « وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج » — فاطر ١٢

(١٧) « وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج » — الفرقان ٥٣

(١٨) « وجعل بين البحرين حاجزا » — النمل ٦١

(١٩) «مرج البحرين يلتقيان ؛ بينهما برزخ لا يبغيان » — الرحمن ١٩ و ٢٠

(٢٠) « وإذا البحار سجرت » — التكوير ٦

(٢١) « وإذا البحار فجرت » — الانفطار ٣

الماء

(١) « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » — البقرة ٢٢

(٢) « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها » — البقرة ١٦٤

(٣) « وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء » — الأنعام ٩٩

(٤) « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به » — الأنفال ١١

(٥) « ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ... » — الرعد ٤

(٦) « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها » — الرعد ١٧

(٧) « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » — الحجر ٢٢

(٨) « وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى » — طه ٥٣

(٩) « وجعلنا من الماء كل شىء حى » — الأنبياء ٣٠

(١٠) « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » — الحج ٥

(١١) « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة » — الحج ٦٣

(١٢) « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض » — المؤمنون ١٨

(١٣) « وأنزلنا من السماء ماء طهورا » — الفرقان ٤٨

(١٤) « وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسبا وصهرا » — الفرقان ٥٤

(١٥) « أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا . . . » — السجدة ٢٧

(١٦) « ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد » — ق ٩

(١٧) « أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون » — الواقعة ٦٨ و ٦٩

(١٨) « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين » — الملك ٣٠

(١٩) « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » — الجن ١٦

(٢٠) « وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا » — المرسلات ٢٧

(٢١) « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا » النبأ — ١٤

(٢٢) « أخرج منها ماءها ومرعاها » — النازعات ٣١

(٢٣) « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا » — عبس ٢٤ و ٢٥

الريح

(١) « ولسليمان الريح غُدُوُّهَا شهرٌ وَرَوَاحُها شهر » — سبأ ١٢

(٢) « فسخَّرْنا له الريح تجرى بأمره رُخاءً حيث أصاب » — سورة ص ٣٦

(٣) « إن يشأ يُسْكِنِ الريح فيظللنَ رواكدَ على ظهره » — الشورى ٣٣

(٤) « وتصريف الرياح والسحاب المسخَّرِ بين السماء والأرض لآياتٍ لقوم يعقلون » — البقرة ١٦٤

(٥) « وهو الذى يُرسل الرياح بُشراً بين يَدَىْ رحمته » — الأعراف ٥٧

(٦) « وأرسلنا الرياح لواقحَ فأنزلنا من السماء ماء مباركا فأسقيناكموهُ وما أنتم له بخازنين » — الحِجر ٢٢

(٧) « وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يَدَىْ رحمته » الفرقان ٤٨ .

(٨) « ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من من رحمته » — الروم ٤٦

(٩) « الله الذى يُرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء » — الروم ٤٨ .

(١٠) « واختلاف الليل والنهار وما أنزل من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آياتٌ لقوم يعقلون » — الجاثية ٥

* * *

وليس هذا كل ما جاء فى كتاب العربية الأقدس ، وما كان من وَكْدنا أن نحصى أو نستقصى ، ولكنها رغبة منا فى وضع الأعلام على الطريق والقادر على السير يستطيع أن يبلغ الغاية . والمهم أن نضع بين يدى الباحث الطُّلَعَة مواد البناء ، واليد الصناع تتولى التشييد ، فأقبل على حديث البحر والماء والهواء فى القرآن ، فستجد آفاقا من البحث تصل بك إلى الكثير . . .

(١٠)

استغلال الكاتبين

وأصبحت ذات يوم فى رأس البر ، وأنا مخمور من هذه النشوة الإلهية ، مسحور من هذه الفتنة الربانية ، أشعر بالعواطف تتدافع فى نفسى ، والأحاسيس تتجمع فى مشاعرى ، والخواطر تعج فى خاطرى كأنها كوكبة من النحل تطن وترن وتريد الانطلاق ، واستقبلت نهاراً مشرقاً وَضَّاحا ، كان كما يقول العقاد : « نهاراً بساماً مدلا بشمسه مزهواً بنوره ، كأنما يحس روعته فى الأنظار ، وبهجته فى الأرواح ، وكأنما يتوهج من نظر العيون إليه ، كما تتوهج الوجنة الصبوح تحت لمحات الأحداق ، كان نهاراً مبتكراً عليه جدة لا تحسبها قد مضت عليها سويعة من يوم ... خلقا مبتكرا يخيل إليك أنه يتلألأ فى قضائه الأول للمرة الأولى » . . . وكل نهار على الشاطئ ، وأمام البحر ، كهذا النهار ؛ فالأيام هنا فى جلالها وجمالها ، وبهائها وروائها ، كالحلقة المفرغة لايدرى أين طرفاها ، أو كالفرائد تساوت فى الصفاء والنقاء ، وخلت من الزيف والكلف ، فلا تستطيع إحداها أن تقول للأخرى : أنا خير منك ! .

وحدثتنى نفسى أن أتناول يراعتى وصحيفتى ؛ لأصوّر هذه الخواطر وتلك المناظر بريشة الأديب ، أو لغة الفنان على صفحة القرطاس ، وأقدمت على ذلك فعلاً ، وكتبت ما كتبت ، وهممت أن أبعث به إلى مجلة كانت لى بها صلة ، لتنشره على الناس ، ولكنى أحجمت ، وكان الخير فى هذا الإحجام ! . . فقد تذكرت طول ما بليت به من هؤلاء الأفاقين المحتالين الذين يمتصون دماء الأدباء الشباب ، ويسرقون نور أبصارهم ، ويستنفدون أضواء قلوبهم . فيستغلونهم أسوأ الاستغلال ويتخذونهم وسيلة لكسب المال وبناء الدور وتشييد القصور وامتلاك العقار وإذاعة الصيت . ويتلفت ذلك الأديب الذى أسال نفسه قطرات فى كلمات ، وسكب دمه دفعة بعد دفعة على صفحات هذه الصحف والمجلات ، يتلفت يميناً وشمالاً لينظر ماذا كسب أو استفاد ، فلا يجد إلا الشقاء والفناء ، فقد افتقر واغتنى صاحب المجلة ، وضاع بصر الأديب وهزل جسمه ، بينما اكتظ صاحب المجلة وانتفخ جيبه . وإذا حاول ذلك الجندى المجهول أن يثور لنفسه أو يطالب بحقه ، أو ينتصف لكرامته ، امتنّ عليه صاحب المجلة — إن حقاً وإن باطلاً — بأن مجلته هى التى شهرته وأذاعت اسمه ، ورفعت ذكره ، وأعزت مكانته ، وجعلته من « كبار الأدباء »! . ويذهب الأديب المسكين باحثاً عن مصرف من مصارف المال أو شركة من شركات الاقتصاد تستطيع أن تحول له هذه الكلمة :

« من كبار الأدباء » إلى قرش يأكل به ، أو جلباب يرتديه ، فلا يرجع بطائل ، ولا يفوز بعاجل أو آجل ! .

ومن أخبث مايتذرع به أولئك التجار الجشعون لاستغلال الهواة من الأدباء والناشئين من الكُتَّاب و « الطيبين » من المحررين أنهم يتسترون فى جرائدهم ومجلاتهم وراء دعوات الإصلاح أو الجهاد أو الدعوة إلى سبيل الله ، ثم يتدثر الواحد منهم بلباس الغيور على الدين ، الباكى لضياع الأخلاق ، الثائر من أجل الفضائل ، ويحفظ من عبارات الملق والمراءاة والمديح والثناء بضعة عشرات ، ثم يتجه إلى ذلك الأديب المسكين ، فيحيي فيه غريزة حب المديح والثناء والاغترار بشخصه ، والعجب بذاته ، ثم يرجوه ذلك التاجر الصحفى الجشع أن يؤدّى ضريبة الفن أو العلم أو الدين عليه ، بكتابة سلسلة من المقالات يشارك بها فى الدفاع عن المبدأ السامى الذى وقفت تلك المجلة جهودها كلها عليه ، لاتبغى من وراء ذلك — كما يدعى صاحبها الأفاق — جزاء ولا عرضا من أعراض الدنيا ! . . .

وهنا ينخدع الأديب المسكين ، أو العالم « الطيب » ، ويظن أنها ثورة مجاهد ، أو سعى مؤمن ورع ، فيبدأ بالكتابة ويواليها بلا أجر أدبى أو مالى ويظل شهورا أو سنوات ، وهو يشاهد — أو يشاهد غيره — أن صاحب المجلة يزداد مالا وعقاراً وجاهاً ، بل وذيوع اسم على حساب ذلك الأديب المسكين وأمثاله الذين ينخدعون بمثل هذه الحيل الخبيثة ! . . .

وإنى لأعرف — شخصياً — كثيراً من كرام الشعراء ونابغى الأدباء وصفوة العلماء ، خُدِعوا بهذه الأساليب ، فكتبوا ما كتبوا ، ودبجوا ما دبجوا ، وأسهموا بما أسهموا ، واغتنى من سخَّرهم و بقوا هم فقراء ، وامتلأ من استغلهم وظلواهم ضعفاء ؛ ولقد يمرض أحدهم فلايعوده من اغتنى بسببه ، وقد يموت أحدهم فيبخل عليه ذلك التاجر الجشع بتشييع جنازته ، أو بأن يقول فيه كلمة الرثاء !! . .

لقد آن لكم أيها الأدباء الغافلون ، والعلماء « الطيبون » ، والكتاب المتفضلون ، أن تعرفوا مكانتكم ، وأن تثوروا لعزتكم ، وأن تطالبوا بحقكم ، وأن تسموا عن أن يضحك أمثال هؤلاء على أذقانكم ؛ فو الله إن البعض منهم يلقى الواحد منكم مرحباً مكرماً ، مردداً عبارات المديح والثناء ، حتى يفوز منه بكتابة مقال أو تصحيح أصل فى كتاب ، أو مراجعة تجارب فى مطبعة ، فإذا أتم الواحد منكم ذلك وانصرف انقلب عليه ذلك اللئيم الخسيس ، والثعبان الخبيث ، حرباً شعواء ، فيسلقه بلسان حديد ، ويطعنه بفم عربيد ، ويقول فيه ما قال مالك فى الخمر !!. . .

* * *

لست أدعوكم بهذا أيها الكتاب إلى أن تكبتوا عواطفكم ، أو تتقاعسوا عن الدفاع عن حرماتكم ومبادئكم وعقائدكم وأوطانكم ، فتلك ضريبة مفروضة عليكم وعلى سواكم من كل مستطيع ؛ ولكنى أحدثكم عن

مواطن تُستغلون فيها أسوأ استغلال ، وتسخَّرون فيها أحط تسخير ، دون علم منكم أو شعور ، أو بعلم منكم وشعور ! . .

لا أحجر عليكم أن تتطوعوا بأقلامكم وأموالكم وألسنتكم حينما تجدون الميدان خالصاً للمبدأ ، والصحيفة مخصصة لله ، والجهود موقوفة على الوطن ؛ أما أن تكون النية موجهة إلى جمع الأموال ، وكنز الذهب والفضة ، فلا تنخدعوا بها حين تعرض عليكم فى زائف الأقوال ! ! . .

هذا كلام له خبىء ، فليت شعرى . . أفيسمعه من قصدتُهم به ، ويستجيبون له ، أم أن كلاً منهم سيتغافل ويتجاهل ، ويقول حين يقرأ هذا الكلام أو يقرأ عليه : إن المقصود بهذا الكلام غيرى من الأدباء والكتاب ! .

لو كنت أملك التصريح والتوضيح أكثر من هذا لفعلت ، فلا تكونوا كالنعامة تخفى رأسها بين ساقيها حين ترى الصياد ، ظانة أنه لن يراها ما دامت هى لا تراه ، فإنا والله نعرفكم بأشخاصكم وأسمائكم ومراحل حياتكم يا هؤلاء ! . .

* * *

لا لا يا هذا ، احبس عليك ما كتبت ، ولا تنثر درك أمام جهال ، وانتظر به قليلا ، لعل الأيام تهيىء لك أن تعرض هذه الصور التى رسمت بها ألواناً من الأدب على قوم يعزونها أو يحبونها ، فيعرفون لها قيمتها ، ويحتفلون بمقدمها ، سواء أقصر الانتظار أم طال ! ! . . .

(١١)

إلى الملتـــقى

وأخيراً ، لقد حانت على الرغم منا ساعة الفراق ، لقد جاءت اللحظة التى كنا نود أن لا تجىء . . . لقد أزف الموعد الذى توجب ظروف حياتنا فيه أن نعود إلى المجتمع الصاخب اللاغب ، لنحمل من جديد أعباء همومنا ومطامحنا ، وشهواتنا ومطالبنا . ولننغمر بين جمهرة هذا الموكب البشرى الهائل الذى يزحف فى عجيج مخيف وضجيج مفزع نحو غاية محـدودة أو مبهمة ، ولـكنها على كل حال ليست بخالصة من الشوائب والأخلاط ، إن لم تكن كلها هى تلك الشوائب والأخلاط ! .

وإذن فلنلق النظرة الأخيرة على السماء الصافية ، والأفق الضاحى ، والجو الباهى ، والشمس الساطعة ، والرمل المنبسط ، والمغانى الهادئة ، والملاعب الضاحكة ، والبحر الهائل ، الذى لا يُرى له آخر . . .

وداعاً أيها الشاطىء . . ووداعاً أيها البحر بما فيك من محاسن ومفاتن ؛ وداعاً إلى يوم نلتقى ، ولست أدرى بالتحديد متى نلتقى ، ولـكنى مؤمن بأننا سنلتقى ، فلن يستطاع إلى نسيانك سبيل ! . .

إلى الملتقى يا رأس البر . . . يا حياة للقـلوب ، وقوة للأجساد ، ومتعة للأبصار ! . . .

الشرباصى

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
تمهيد	١١
بين الأمس واليوم	١٤
فى الطريق	٢٤
هذه رأس البر	٣٧
أشواك حول الورود	٥٣
لماذا خلق الله البحر	٦٣
لواذع الحرمان	٧٤
الليل على الشاطىء	٨٥
حديث عن الغناء	١٠٠
من القرآن	١١٠
استغلال الكاتبين	١١٨
إلى الملتقى	١٢٣

كتب للمؤلف

(١) حركة الكشف . . . صدر عام ١٩٣٦م
(٢) محاولة . . . . . » » ١٩٣٧م
(٣) بين صديقين . . . . . » » ١٩٣٩م
(٤) نفحات من سيرة السيدة زينب » » ١٩٤٦م
(٥) المحفوظات الأزهرية . . » » ١٩٤٨م
(٦) واجب الشاب العربى . . » » ١٩٤٨م
(٧) لمحات عن أبى بكر . . » » ١٩٤٨م
(٨) تحقيق كلمة الإخلاص (شرح).
بالاشتراك مع فضيلة الشيخ محمود خليفة » » ١٩٥٠م
(٩) فى رحاب الصوفية . . » » ١٩٥٠م
(١٠) صفوة التصوف (شرح) . . » » ١٩٥٠م

كتب قيمة

من واجبك أن تقرأ هذه الكتب فهى زادك الطيب ورحيقك المصفى :

١ — العقل المؤمن : للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

٢ — العدالة الاجتماعية فى الإسلام : للأستاذ سيد قطب

٣ — الإسلام المفترى عليه : للأستاذ محمد الغزالى

٤ — فقه السنة : للأستاذ سيد سابق

٥ — ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : للأستاذ أبى الحسن على الحسنى الندوى

٦ — فتاوى شرعية وبحوث إسلامية : لمولانا الأستاذ الكبير الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتى الديار المصرية السابق .

٧ — أركان الإسلام الخمسة : للدكتور أحمد يحيى الدردير

٨ — مشاهداتى فى جزيرة العرب : للأستاذ أحمد حسين

٩ — حماة السلوم : للصاغ محمود بك لبيب

١٠ — شفاء الروح : لمحمود بك تيمور

١١ — ظلام السجن : للأستاذ محمد على الطاهر

١٢ — عصر الخلفاء الراشدين : للدكتور محمود على فياض

١٣ — نظم الحرب فى الإسلام : للأستاذ جمال الدين عياد

١٤ — تربية الطفل : للدكتور حامد البدرى الغوابى

١٥ — رسائل الدنيا والدين : للأستاذ محمد لبيب البوهى

١٦ — حفيف الغابة (ديوان) : للأستاذ قاسم مظهر

١٧ — مواكب الذكريات (ديوان) : للأستاذ حسن عبد الله القرشى

يظهر قريباً للمؤلف :

مذكرات واعظ أسير

مئات من الصفحات تفيض بالحديث عن الإسلام ، وأحداث المحنة الكبرى التى منيت بها الفكرة الإسلامية فى عهود الظلمات ، وتسجيل صادق لأيام الاعتقال بما فيها من ذكريات الزملاء ومواقف الأصدقاء وألوان الابتلاء . . .

يظهر قريباً بمشيئة الله . . . فانتظروه .

916.21:Sh53sA:c.1
الشرياصي، احمد
صلوات على الشاطئ
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01048421

American University of Beirut

916.21
Sh53sA

General Library